ترجمة وتقديم:

شاكر نوري

محاكمة برودسكي

- محاكمة
- شهادات
- وثائق
- نقد

اول محاكمة لشاعر

سطور



ترجمة وتقديم د. شاكر نوري

محاكمة برودسكي

محاكمة. شهادات. وثائق. نقد

تأليف

هيلين كاريير دانكوس. إيفيم إيتكند. جانين ليفي

فريدا فيغوروفا. ليديا تشوكوفسكايا. شارل دوبزينسكي.

ترجمة وتقديم: د. شاكر نوري

محاكمة برودسكي

محاكمة. شهادات. وثائق. نقد





محاكمة برودسكي

محاكمة. شهادات. وثائق. نقد

ترجمة وتقديم: د. شاكر نوري

Brodski

ou le procces d un poet

Presentation et commentaire

d Efim Etkind

Libraire Generale Grancaises

Paris1988

shakirnoori@gmail.com

الطبعة الأولى: 2017
إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07700492576 - email: bal_alame@yahoo.com

First Published by Dar Sutour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 158 - 8

بـرودسكي:

«مرآة عملاقة لكوكب معزول»

تقديم: شاكر نوري

«إن من يركض وراء نشر كتبه لا يمكن أن يكتب وينتج».

«نحن جئنا إلى هنا لا لكي نعيش بل لكي نكمل ما تبقى لنا من أيام العمر».

«عندما نفقد قدرتنا على كتابة الشعر، يعني أن الحياة أوشكت على الانتهاء»

برودسكي

يتساءل برودسكي فيما لو يكون قادرًا على كتابة «الكوميديا الإلهية» ذات يوم لكنه يجيب على هذا السؤال بقوله: «عندما نغادر البلدان التي طردنا منها، تصبح الخيبة عنصرًا في الوجود، وتقل حماستنا الحيوية التي تحتاجها المشاريع الكبرى»... ونتساءل بدورنا: ألم ينجز هذا الشاعر مشروعه الكبير في الكتابة والشعر أم إنه متواضع إلى هذا الحد أمام الإبداع الإنساني العظيم؟ لقد كتب برودسكي «الكوميديا الإلهية» بشكل أو بآخر عبر أعماله المبدعة وحياته المتمردة ومنفاه الحقيقي.

ألم تكن محاكمته نوعًا من الجحيم الذي تلظى به دانتي في أيامه الأخيرة؟

سؤال آخر لا بد من توجيهه أولا إلى حكّام بلده الذين كانوا يجهلون بأن الأدب هو الخالد وهم الزائلون.

***

تستيقظ روسيا من سباتها، وها هي الأوساط الثقافية في روسيا تستعيد، ذكرى مرور أربعين عامًا على اعتقال السلطات السوفيتية الشاعر العالمي جوزيف برودسكي الحائز على جائزة نوبل. والغريب أنه اعتقل في 18 فبراير 1964 بتهمة أنه شاعر يكتب خارج الإطار المرسوم للأدب آنذاك. كان ممنوعًا أن يغمس الشاعر قلمه بدمه لكتابة قصائده كما فعل

الشاعر سيرغي ياسنين. وتهمة الشاعر... ذلك الخالق والمبدع لعالم موازٍ للعالم اليومي المبتذل ومفجر الطاقات الروحية كانت تعد تهمة خطيرة في نظر الأنظمة الشمولية، ونحن في العالم العربي أدرى بذلك، وأكثر خبرة وتجربة: والعقوبة التي يتلقاها شاعر كهذا هي تجريده من هذه الطاقة الروحية الشفافة وجعله بوقًا في خدمة النظام.. وإلا.. فلا حضور له إلا في غياهب السجون والمعتقلات والمنافي.

***

لم تكن محاكمة الشاعر برودسكي من نسج الخيال بل هي حقيقة واقعة موجودة في الوثائق والأرشيف. ولعل الكتاب الذي نحن بصدده شاهد على ذلك. وقعت على كتاب «برودسكي أو محاكمة شاعر» عن طريق المصادفة المحضة في أحد أسواق الكتب القديمة على أرصفة شاطئ السين المكتظة بالمكتبات الصغيرة، المصنوعة من ألواح الخشب حيث أصحابها يتميزون بمعرفة واسعة عن عالم الكتب ولهم القدرة على التعامل مع الكتب. لذا يخيل إليك، وأنت تقلب هذا الكتاب أو ذاك، بأنهم يجهلون أهميتها ولكنك سرعان ما تشعر بخطأ تصوراتك لأنهم يعرفون قيمة الكتب القديمة والنافدة منها. وكان هذا هو الأمر بالنسبة للكتاب الذي أتحدث عنه. وبعد أن اقتنيته، سارعت للانزواء في أحد المقاهي المجاورة، والتهمت نصفه قراءةً.

ومنذ تلك اللحظة داعبتني فكرة ترجمته إلى قراء العربية ولعل أكثر ما أثارني الفصل المخصص للمحاكمة التي تشبه إحدى روايات كافكا. ووجدت في هذا الكتاب نموذجًا لتجسيد العلاقة المأساوية بين السلطة

والإبداع لأن هذه القضية ما زالت تتفاعل في مجتمعنا العربي ولم تجد بعد الحلول اللازمة على الرغم من سقوط الإمبراطوريات والدكتاتوريات والأنظمة الشمولية هنا وهناك. لم يحتف بلده الأصلي بهذا الشاعر، بل لم يكن يعتبر شاعرًا في بلده وقد مُنع من الكتابة لأنه لم يكن منتميًا إلى اتحاد الكتاب والأدباء السوفييت آنذاك لأن الأدب كان عليه أن يمر بالقنوات الحزبية قبل أن يرى النور وإلا يعتبر منشورًا سريًا يحاسب صاحبه عليه. هذا الشاعر الذي حاز على جائزة نوبل للآداب من مقر إقامته في الولايات المتحدة، كان رائدًا للحداثة في بلده بل كان أكثر من شاعر، فهو مفكر، خرج على تقاليد الأدب المألوف ليذهب بتجربته إلى أقصى مداها. أما معاصروه فلم يكونوا يفهمون معنى روحية هذا الشعر الذي ولد أمام أبصارهم، أسلوب مجدد لم يظهر على صورته الطبيعية إلا في السنوات اللاحقة لأنه كان ابن العصر في بداية الستينات، يأخذ ملامحه من الأزمة التي عصفت بكل الأفكار والقيم والمثل الاجتماعية والسياسية. وأثبت برودسكي عبثية كل ما آمنت به الأجيال الماضية.

كتاب جماعي، ألفه نخبة من حلقة أصدقاء الشاعر الأقرب إليه أمثال هيلين كاريير دانكوس. إيفيم إيتكند. جانين ليفي فريدا فيغوروفا. ليديا تشوكوفسكايا. شارل دوبزينسكي. كل واحد منهم له دور في إنجاز هذا الكتاب ـ الوثيقة الدامغة والأولى من نوعها في تاريخ الأدب المعاصر. كما أن هذا الكتاب يكشف إلى أي حد تتعقد فيه علاقة الأدب بالسلطة، وهي ليست بعيدة عن مناخات عالمنا العربي، وهذه وإن كانت محاكمة أول شاعر في التاريخ إلا أنها تتكرر بشكل أو بآخر هنا وهناك. وفي كل مرة، تحاول السلطات أن تخنق صوت الأدب والشعر والإبداع.

حرصنا على ترجمة الكتاب ترجمة كاملة، دون نقصان، لأنه أول كتاب من نوعه يصدر باللغة الفرنسية، ويتضمن جلسات محاكمة الشاعر والشهادات والوثائق والنقد الأدبي في آن واحد. وعلى الرغم من جماعية تأليف هذا الكتاب إلا أن مؤلفه الرئيسي هو إيفيم إيتكند الذي ولد في لينينغراد عام 1918، وهو عضو اتحاد الكتاب وأستاذ الأدب في الجامعة حتى عام 1974، التاريخ الذي هاجر فيه من الاتحاد السوفييتي سابقًا. عاش ودرس في جامعة باريس العاشرة. وهو مؤلف لعدد من الأعمال النقدية والأدبية. وكذلك لأنطولوجيا الشعر الروسي بالفرنسية. وله كتاب مذكرات بعنوان «منشق رغم أنفه» كما اشترك في تأليف كتاب ضخم بعنوان «تاريخ الأدب الروسي» الذي صدر ضمن منشورات «فيار» الفرنسية المعروفة.

يعود الفضل في تدوين وحفظ جلسات محاكمة الشاعر برودسكي في عام 1964 إلى الصحافية الشجاعة فريدا فيغدوروفا التي لولاها لذهبت وقائعها أدراج الرياح. وثيقة هامة وفريدة من نوعها، أوضح أبعادها وعلق عليها إيفيم إيتكند، عضو اتحاد الكتاب والأدباء، وصديق برودسكي وأحد الذين شهدوا محاكمته. وصفها الكثيرون بأنها رائعة سريالية تراجيكوميدية، من هذه اللجة التي انبثقت منها البيروسترويكا.

***

وبرودسكي، ربما من أكبر الشعراء الروس المعاصرين، لم يكن يهتم بنشر قصائده. يقول له سولومون فولكوف في هذا الصدد في محاورته الطويلة معه: ألا ترى في ذلك نوعًا من روحية التكبر والتعالي؟ يجيبه

برودسكي: لأن «من يركض وراء نشر كتبه لا يمكن أن يكتب وينتج» ويضيف برودسكي «أريدك أن تفهم، ياسولومون، عندما نفقد قدرتنا على كتابة الشعر، يعني ذلك أن الحياة أوشكت على الانتهاء» [كتاب «مناقشات مع جوزيف برودسكي» لسولومون فولكوف، الصادر حديثًا عن منشورات لاروشير / باريس]. في هذا الكتاب، يلقي محاوره وصديقه الضوء على مصير الشاعر الذي اختزل حالته عن بعد وبسخرية. لم يكن برودسكي يحس بمدينة نيويورك بل عاش فيها حياة هامشية نوعًا ما على الرغم من المجد الذي ارتقى إليه فيها. «نحن جئنا إلى هنا لا لكي نعيش بل لكي نكمل ما تبقى لنا من أيام العمر». فكان يكتب مقالاته بالإنكليزية وفي لغة «الإمبراطورية» الجديدة على الآلة الكاتبة، في حين كان يكتب قصائده باللغة الروسية القديمة وبالقلم لأنه يرى الشعر من خلال معايشة لغته الأصلية الأم في أعماقه وذكرياته وأحلام طفولته وتجارب الشعراء الذين سبقوه.

ويبدو برودسكي في زمنه وخارج زمنه في آن واحد. وفي مواجهة فولكوف [كتاب الحوارات السالف الذكر]، يستحضر الشاعر سنوات شبابه الثائرة، وتهميش السلطة السوفييتية الذي تعرض له، وإقامته في المنفى السيبيري، والزيارات الفظيعة والساخرة التي كان يقوم بها جهاز الاستخبارات السوفيتية ال كي. جي. بي. آنذاك، وطرده من بلاده في عام 1972 إضافة إلى حياته في نيويورك. يستحضر كل الأشياء التي صنعت منه إنسانًا: الشعراء الذين يحبهم أمثال: أوسيب ماندلستام، مارينا تسفيتاييف، آنا أخمتوفا، و. د. ه. أودن، وروبرت فروست وهم من كبار شعراء القرن الماضي من الروس والأنكلوسكسونيين الذين يحملون

في أعماقهم بذور الميتافيزيقيا ويتحركون ضمن خيبة الأمل التي تولدت من ركام التاريخ. كما أتاح له كل شاعر من هؤلاء الشعراء أن يدخل في أعماقه تدريجيًا عناصر من هذه «الثقافة العالمية» التي كان يحلم بها في أثناء عيشه في بطرسبورغ. وسيرة حياة الكاتب، في نظره، تحددها، الطريقة التي يتعامل بها مع اللغة» وبعبارة أخرى إن القيم الجمالية تسبق القيم الأخلاقية، وهي وحدها القادرة على فهم الميتافيزيقيا، كما يقول برودسكي «إن فهم ميتافيزيقيا المأساة الشخصية للكاتب تزيد من حظه في العيش في دراما التاريخ».

السلطة السوفياتية لاحقت جميع الشعراء الروس الكبار وكان برودسكي أخرهم، وفي نظره أن «الميزة الجوهرية للتاريخ هي «الفظاظة» و«تمثيله الدولة»، ولغته الشعرية التي تفجرت ضد هذه الفظاظة وهذه الدولة من أجل إنقاذ فردية الفرد وانتصار الإنسان فيه. وهذه المواقف جعلت أيادي الشباب تتلقف قصائده في عام 1964 على الرغم من منع تداولها بل وإخضاعه للمحاكمة الشهيرة التي قال الشاعر بصددها «لا بد من التذكير بأنني سمعت اسم برودسكي يتردد لدرجة لا تعد ولا تحصى من قبل على ألسنة الحراس والقضاة والمعاونين والمحامين والشهود، تخيلت بأننا في طقوس الزِّنْ البوذية، ولو استمر شخص في ترديد اسم ما بصورة متواصلة ومتكررة فإن هذا الاسم يتلاشى ويختفي». وآمن برودسكي بأن حياة الشاعر تشبه «الطاقة الكامنة في طائر الفينيق» الذي يولد ويموت ويولد من رماده من جديد.

وعن هموم المثقفين ومقارنتها بهموم الفلاحين، قال: «نحن المثقفين، يكفينا أن نقرأ كتابًا جديدًا لكي ننسى جميع همومنا، أليس

كذلك؟ بينما يعيش الفلاحون من عرق جبينهم في زراعة الأرض ولا يمتلكون شيئًا آخر غير ذلك. وهذه هي مأساتهم الحقيقية».

يتحدث لفولكوف عن حياة الكتاب والأدباء المرتبطين بالسلطة وهي مزيج من التراجيديا والكوميديا وأن «الأفراد الأكثر مسكنة وتواضعًا هم الأكثر تلاؤمًا ليصبحوا أسطوريين». على أية حال، ليس إعطاء الدروس من وظيفة الشاعر بل من وظيفة الطاغية. ورفض الشاعر يتجسد من خلال اللغة التي يستخدمها. ومن المعروف أن السلطة السوفييتية أجبرته على مغادرة وطنه في عام 1972 كما رفضت الترخيص له بالعودة إلى وطنه للمشاركة في دفن والديه في منتصف الثمانينات. وبعد عام 1989 أي بعد انهيار النظام السوفييتي وسقوط الأنظمة الاشتراكية لم يكن للعودة إلى الوطن من معنى في نظره. يقول برودسكي عن روسيا «أصبحت روسيا الحالية بلدًا مختلفًا، عالمًا آخر، ولو ذهبت إليها كسائح، فإنني سأصاب بالجنون مما سأراه» كان في عام 1987، يتناول العشاء مع جون ليكارييه عندما أعلنت الأكاديمية السويدية فوزه بجائزة نوبل للآداب، فعاد كلاهما إلى منزل عازف البيانو، ألفريد بريندل، الذي كان يؤوي برودسكي. ومن هنا أعلن تصريحاته الأولى بصدد فوزه بهذه الجائزة العالمية الرفيعة. ومن حسن الحظ كان صديقه عازف البيانو غائبًا عن المنزل لأنه لا يتحمل الضوضاء». مات والداه قبل ذلك التاريخ بفترة وجيزة. وكان برودسكي يرغب لو سمعا بهذا الخبر قبل رحيلهما.

ويقول لفولكوف «كان الانفعال الأدبي الأكبر يعتمل في نفسه في العشرين من عمره، وهو يعيش في روسيا عندما علم بأن الشاعر د. ه. أودن سيكتب مقدمة للطبعة الإنكليزية الأولى لقصائده». ويضيف «يعبر

الشاعر عن طبيعة الإنسان لجمهوره ولكن لا أحد يسمعه، لا أحد.. وطموح الإنسان الجوهري هو تغيير العالم الذي يعيش فيه وحماية حقيقته. وفي كل مرة، تقترح عليك الحقيقة إما أن تتحول أو ستكره الشاعر الذي يحمل لك هذه الحقيقة. وهذا أسوأ شيء، تنصبّ عليك أمطار التعويض وتحاول أن تنساه».

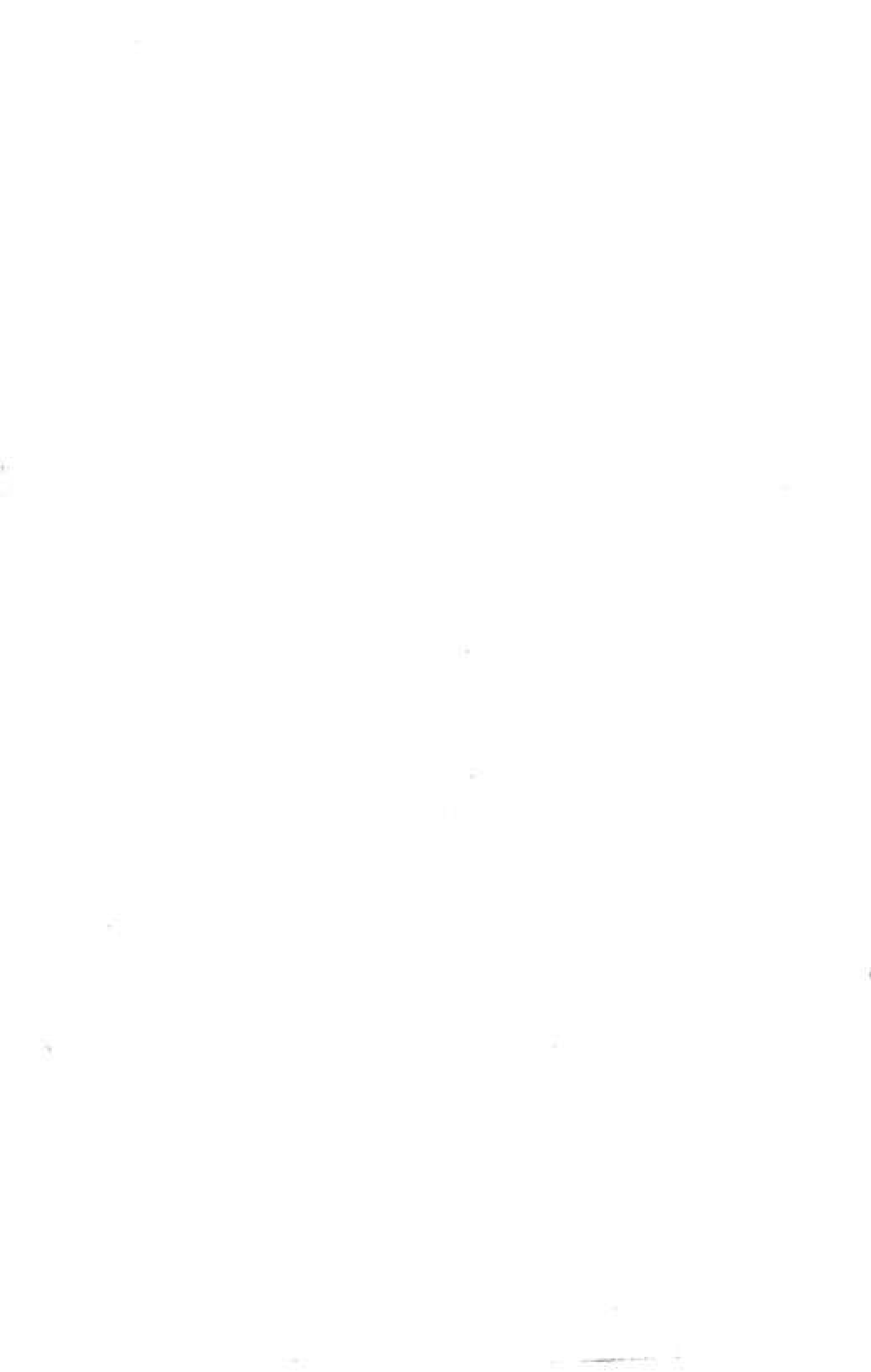
هذا الشاعر الذي لم يحتف به بلده الأصلي، بل ولم يكن يعتبر شاعرًا في بلده ومنع من الكتابة لأنه لم يكن منتميًا إلى اتحاد الكتاب والأدباء السوفيت آنذاك، ونشر الأدب كان عليه أن يمر بالقنوات الحزبية قبل أن يرى النور. هذا الشاعر الذي حاز على جائزة نوبل للآداب من مقر إقامته في الولايات المتحدة، كان رائدًا للحداثة في بلده، بل كان أكثر من شاعر، فهو مفكر، خرج على تقاليد الأدب المألوفة ليذهب بتجربته إلى أقصى مداها. أما معاصروه فلم يكونوا يفهمون معنى روحية هذا الشعر الذي ولد أمام أبصارهم، بأسلوب مُجدد لم يظهر على صورته الطبيعية إلا في السنوات اللاحقة لأنه كان ابن العصر في بداية الستينات، يأخذ ملامحه من الأزمة التي عصفت بكل الأفكار والقيم والمثل الاجتماعية والسياسية. وأثبت برودسكي عبثية كل ما آمنت به الأجيال الماضية.

***

توفي الشاعر برودسكي في «وطن غريب أحبه» كما كان يردد وذلك في 28 يناير عام 1996 في نيويورك، وتلبية لوصيته دفن، بعيدًا عن وطنه حيث يرقد بالقرب منه الشاعر الأمريكي الكبير عزرا باوند، ودياجليف ـ أحد أعلام الباليه الروسي ـ والموسيقار سترافينسكي. ولعل المصادفة

المحضة وحدها هي التي شاءت أن يكون برودسكي قد ولد في مدينة الماء بطرسبورغ التي وصفها بـ«مرآة عملاقة لكوكب معزول»، ودفن في مدينة الماء أيضًا البندقية، في «مقبرة المنفيين» الكائنة في جزيرة سانت ميكائيل التي تضم رفات مبدعين آخرين أمثال: يلاغلييف، أزرا باوند، وسترافنسكي، المؤلف الموسيقي المفضل لديه. لقد أحب برودسكي مدينة البندقية لما تحتضنه من أعمال فنية عظيمة، ولأنها طافية على الماء..» الماء هو شكل مكثف للزمن ومن انعكاساته المستديمة تنبع تحولاته اللانهائية «حيث» الناس غائبون في هذه المدينة، الإيطاليون ساحرون بالتأكيد، عيونهم سود، وهم عبارة عن خليط من التراجيديا وروح الشّطارة». وهكذا يطفو قبره فوق سطح مياه البندقية.. يناجي مدينته الأم بطرسبورغ التي فضل الابتعاد عنها حتى في موته لفرط ما يكنّ من حب لها.

من يصدق أن الأدباء يحبون مدنهم إلى هذه الدرجة، أي يفارقونها حتى في موتهم ويفضلون أن تمتزج أرواحهم في مياهها ورمادها وآلامها؟



مقدمة

هيلين كاريير دانكوس

برودسكي شاعر «ذوبان الجليد»

يعتبر جوزيف برودسكي، الحائز على جائزة نوبل للآداب في عام 1987، كاتبًا متميزًا من نوع فريد.. وشاعرًا لا تمكن مقارنته بالشعراء الآخرين، دون أدنى شك. وهو في الوقت ذاته، كاتب من كتاب «الأندرغراوند» هذا المصطلح الغني والمشحون بالتاريخ كما أطلق عليه الكسندر سولجنتسين في كتابه «البلاط والعجل» ـ منشورات سوي 1975 ص 8 ـ.

من المؤكد، أن برودسكي الذي توجته الأكاديمية السويدية بجائزتها، ليس في بلده أول كاتب من كتّاب «الأندرغراوند» إذ سبقه إلى ذلك كل من باسترناك وسولجنتسين. وما يشرف الأكاديميين في نوبل هو اعترافهم بعبقرية شعراء ـ الأندرغراوند ـ في حين أرادت السلطة القيصرية أن توصد الأبواب في وجوههم وبرودسكي واحد منهم. إن اختلاف البعض من أسلافه الروس السوفييت، يطرح سؤالًا هامًا مفاده:

هل كان برودسكي يسعى إلى نشر أعماله برغبة وحماس أم أراد أن يضعها في الأدراج ويخبئها ويطمرها كما لو كان عديم القدرة والموهبة؟

هناك عدد لا يحصى من الكتّاب في روسيا. ومن المعروف أن الشعر يشكل جوهر العبقرية الوطنية التي أخضعت للصمت. وبصورة رسمية، لم يُحسب هذا الرجل شاعرًا لأنه لم يكن هكذا، كما أفاد قضاته. هذه مسألة تستدعي الدراسة والتمعن لأنها تنم عن ذهنية خطيرة. لم يكن برودسكي عضوًا في اتحاد الكتّاب، المؤسسة القادرة على منح شهادة المواهب و«الاهتمامات» الأدبية على الرغم من أن الشبيبة السوفييتية كانت تستنسخ أشعاره وترددها بحماس وانفعال. وهذا تحصيل حاصل، وهو في نظرهم لم يكن سوى رجل كسول، طفيلي، جرى الاتفاق على إرجاعه إلى صوابه في أحد معسكرات الأشغال الشاقة في عام 1964. وباعتباره ممثلًا لكتّاب ـ الأندرغراوند ـ اشتهر برودسكي بطريقة نموذجية في تجسيد العلاقة المأسوية بين «السلطة» وبين «الإبداع» في روسيا والاتحاد السوفييتي عامة حيث أن هذه «القضية» جرت وقائعها في لحظة متميزة وفاصلة من تاريخ هذا البلد، في فترة الإصلاحات التي دشنها خروتشوف. ولا بد من دراسة هذه اللحظة من أجل فهم قضية برودسكي وإدراك كل أبعادها وما آل إليه مصير هذا الكاتب الشاعر المنحدر من هذا التيار الأدبي الناهض. خروتشوف، هذه الشخصية العفوية والماكرة والحدسية واللامعقولة، سيطرت على المشهد السياسي السوفييتي في سنوات 1958 ـ 1964 وهي سنوات القطيعة مع الستالينية. فالثقافة المركزية في البناء الستاليني، جرفتها وكنستها رياح التغيير فيما بعد. وفي مفهوم الثقافة ـ أداة الانتشار وشرعية الاختيار في السلطة ـ كان جوهر الكاتب يكمن في مهمته التي تشبه ما يقوم به «مهندس الأرواح» غير أن هذا المفهوم سرعان ما تغير وأصبح أكثر انفتاحًا من السابق. كان

على الثقافة أن تساهم في تحرير النفوس من الستالينية، والذين يحملون هذا المفهوم من جميع المبدعين يجب أن يجدوا طريقهم في هذه الثورة المعجزة.

في الحقيقة إن موت ستالين في 5 مارس عام 1953 كان كافيًا في لحظة واحدة لزعزعة كل نظام الهيمنة على الأرواح باعتباره يمثل طغيان «الأب الرائع للشعب» لأنها الضمانة الوحيدة لمصالح الجميع. إيليا إهرنبورغ، بعد أن كان الطفل المُدلل للنظام والذي ساهم في تدجين الحياة الثقافية، أكد بعمل مأثور أن هذا الزمن قد ولى وانتهت صلاحيته. وفي مقالة كرسها لدور الكاتب، طالب بضرورة حق التفكير المستقل عن السلطة. وفي العدد الأخير لمجلته «نوفي مير» 1953، المجلة المتميزة بين المجلات الأدبية السوفييتية، نشر مقالًا نضاليًا وناريًا للكاتب بوميرانستسف، وهو ناقد ذو شهرة ذائعة. وطالب إهرنبورغ أيضًا، بتحرير الكتاب والأدباء من وصاية السلطة، مستحضرًا ما قاله «في صدد علاقة الأدب بالسلطة:

هل كان شكسبير عضوًا في اتحاد الكتّاب» ؟

وهكذا... وقبل أحد عشر عامًا من المحاكمة التي رفضت «إطلاق صفة شاعر على برودسكي» وأنكرت حقه في ممارسة النشاط الأدبي لا لشيء إلا لعدم انصياعه إلى قوانين النظام. وقد رفضت مجلة «نوفي مير»، وبطريقة تنبئية، هذه الترسانة الإعلامية الضخمة وأنكرت شرعية محاكمة الشاعر عام 1964.

وبعد مرور بضعة أعوام، عاد إهرنبورغ، مع مجلة «ديجيل» الرائعة

يجسد فيها بدقة وصدق غير مسبوقين المساومات التي كان يجب على المثقفين الروس تقبلها حتى تمنحهم السلطة حق حرية التعبير. وفي المقابل، طالب دودنتسيف آنذاك في روايته، ذات العنوان الاستفزازي الشهير «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» مؤكدًا أنه لا يمكن تجاهل الاحتياجات الروحية للمجتمع السوفييتي لمدة أطول.

وبدأت جهود المثقفين، في الشهر الذي أعقب موت ستالين، من أجل انتزاع الثقافة من الجمود الستاليني وإنعاش الفكر والإبداع. كانت تلك الأرواح الحرة مطمورة تحت حطام الثقافة الحقيقية. وستصبح «أصوات من تحت الحطام»، بعد مرور أكثر من عشرين عامًا على البيان الذي نشر في باريس. وفي الصدمة الانفعالية لمرحلة ما بعد ستالين، تجد من الطبيعي دعوة أسلافهم إلى تجسيد الوعي الأخلاقي في المجتمع ضد السلطة، ومخاطبة أدباء آخرين يشكلون واجهة السلطة نفسها، ومن بينهم وزير الثقافة الذي كان يدعم سلطات اتحاد الكتاب والأدباء ـ وكذلك الشاعر سوركوف، والناقد ايرميلوف اللذان كانا يهاجمان الأدباء المستقلين. وفتح رئيس تحرير «نوفي مير» صفحات مجلته واسعة أمام هذه المناقشات. وكان عليه أن يتخلى عن مكانه إلى ممثل الأرثوذوكسية الفكرية الشرعي، الروائي قسطنطين سيمنوف. وفي هذه الحدود، لم يكن من الممكن إيقاف حدود النقاش والجدل. وحتى لو أن المؤتمر العشرين، لم يكرس لحرية الإبداع إلا مكانة متواضعة، لأنه كان يحث ويشجع على السير في الحركة العامة. وانتحار السكرتير العام لاتحاد الكتاب والأدباء الروائي فاديف غداة المؤتمر كان شاهدًا على عمق الانقسام والاضطراب، إيذانًا ببدء ذوبان الجليد ثانية. كان الطلبة

يتجادلون في الجامعات على الدوام، ويقرؤون الأشعار وخصوصًا أشعار آنا أخماتوفا التي وضعها جادانوف في قمة الشهرة عام 1946 عندما بدأ بعض الشعراء ينظمون أنفسهم في حلقات ثقافية صغيرة. وثمة شاعر شاب يدعى ـ ايفنشتكوف ـ خاطب الجمهور باسم كتّاب اليوم بـ« كشف حساب كتّاب الأمس المذنبين لكونهم انصاعوا إلى السلطة وخانوا رسالتهم الأدبية». مما أدى إلى إبعاد الجدال بين المثقفين، وبين الأبناء والآباء، ذلك هو الجدل مع السلطة التي ستهيمن على مصائر الكتّاب مرة أخرى. إن موت ستالين، ومن بعده موت خروتشوف، أطلقا القوى التي كانت السلطة واهمة في اعتقادها بأنها مدجنة نهائيًا.

كيف يمكن الإجابة على هذه الحركة بدون أن تثور؟ وهل كان من الممكن العودة إلى الجمود السابق؟

كانت الوساوس الدائمة تأتي من الإصلاحيين، أؤلئك الممسوسين، والمتذبذبين، والمهانين من عظمة الجدال. وكان خروتشوف يقصد أن يجذب هؤلاء الكتّاب والأدباء إلى جانبه من خلال ممارسة لعبة الليبرالية وتوجيههم في إطار يحدد دورهم داخل سياسة الحزب. يتزلف إليهم ويداعبهم ويسميهم في الوقت ذاته «البناؤون». و«مهندسو الأرواح» وغيرها من الصفات. المثقفون اغتاظوا من هذا الغموض وثاروا واهتاجوا في مواقعهم. من ناحية، يسيطر المحافظون على المجلات ويغلفون إنتاج أولئك الذين أطلقوا عليهم باحتقار «المثقفون الصغار». ومن ناحية أخرى، هناك المجددون أو الأرواح المتعطشة إلى الحرية، يتابعون مسيرتهم وينشرون على نفقتهم الخاصة ما اصطلح عليه samizdat «أي النشر على نفقة الكاتب» إذ بدأت تلك الكتابات

والأشعار تبدو «مخربة» في نظر السلطة، حيث يقرأها هؤلاء الأدباء في نسخ مطبوعة على الآلة الكاتبة في انتظار احتمال نشرها. وفي الحقيقة، انقسمت آنذاك النخبة السوفييتية وتجرأت على ذلك بصورة جماعية لم يسبق لها مثيل بل وأصبحت مقبولة من المجتمع ثم أعقبها تقسيم مفتوح من المجتمع. من ناحية الثقافة الرسمية، تصم آذانها بوجه تذمر الأعماق والدواخل والانفكاك من الستالينية التي بدأت تتطور. ومن ناحية أخرى، هناك نخبة، تشكلت من النفوس المتحررة التي تطورت خلال عقدين من الزمان، توقفت عن الاختلاط بثقافة السلطة.

في نهاية سنوات الخمسينيات، صعّدت قضية باسترناك من حجم الانقسامات الفكرية وزعزعة عملية تفكيك الستالينية. وهذه القضية ولدت من «ديجيل». من عام 1954، القصائد العشر التي أنجزت «الدكتور زيفاكو» بدأت تنتشر. وفي عام 1955، أنجزت الرواية وبعث بها باسترناك إلى المجلات ودور النشر التي صمتت أو أشادت بمزاياها ولكن أخذت بعين الاعتبار جميع الأشياء، وظلت الرواية غير قابلة للنشر. وأصبحت «قضية زيفاكو» فضيحة وطنية عندما صدرت الرواية في الخارج. وفكرة «النشر على نفقة الكاتب» لم تكن محتملة من قبل السلطة لأبعادها العالمية التي منحت للكاتب. وأسوأ من ذلك، في أكتوبر من عام 1958، أي بعد أشهر من صدور «الدكتور زيفاكو» في إيطاليا، نوفمبر 1957 «وحصول باسترناك جائزة نوبل للآداب.

إن انطلاق الكراهية التي شكلت رواية «الدكتور زيفاكو» لم تكن حادثًا عرضيًا، بل هي وليدة تعبئة مبرمجة من قبل الأنتلجنسيا والجماهير التي تتذكر والمناهج الستالينية بصورة غريبة. كان المقصود من تلك الأشياء

إرهاب باسترناك. ولو أن السلطة لم تكن تشعر بالخوف لما كانت منعت نشر الرواية، ولما قام باسترناك برفض جائزة نوبل.

كانت أساليب التهديد وتعليقات الصحف التي كانت تعامل «البرجوازية الصغيرة» باحتقار وتستحضر عبثية روايته كما جاء في مجلة «ليتراتوريا غازيت» العدد 25 أكتوبر / 1958 أو تطلق على باسترناك تسمية «القمامة الأدبية» البرافدا، العدد 26 أكتوبر / 1958، شهدت، قبل كل شيء، على هشاشة عملية تفكيك الستالينية ورفض نظام قبول التحرر الفعلي عند المبدعين.

إن قضية باسترناك غير مقبولة من قبل السلطة. وقد أشار باسترناك من خلال الاستماتة في الدفاع عن روايته ـ مفهومه عن الحقيقة ـ إلى أنه لا يمكن التوافق مع فكرة قبول سلطة أعلى من سلطة وعي المبدع. فقد قامت السلطة بالضغط عليه في رفض جائزة نوبل. والنص الفظيع الذي نشرته «البرافدا» في 5 نوفمبر / 1958ـ حيث أكد باسترناك أنه رفض الجائزة بملء إرادته وأدان العالم الغربي بحجة أنه استغل روايته سياسيًا ـ والجوهري في الأمر روايته ذاتها. وفي الحقيقة أنه لم يكن يرفض أي شيء من هذا القبيل. وكان يتشكل، ما وراء الرجل الممزق، وعي صاف من خلال شهادة تؤكد بأن المثقف لا يمكن أن يخون وعيه، وهذه هي وظيفته. وهو ليس أقل قلقًا من إرسال روايته إلى الخارج ونشرها بعيدًا عن وطنه. ولو قدر لباسترناك أن يختار المنفى وينشر روايته هناك لكانت قضيته أخذت مسارًا آخر. ونشر مهاجر لروايته يمكن لها أن تزعزع السلطة السوفييتية بصورة أكبر مما حدث ولكنه، والحالة هذه لم تقم بإثارة موضوع هام للغاية ألا وهو موضوع

علاقة الإبداع بالسلطة. وبما أنه ككاتب سوفييتي، رفض مغادرة بلده وتعرضه للإهانة، ومن أجل تجنب المنفى الإجباري، تحول إلى الشخص الذي خرق المحظورات. ولكان حقق فكرة الحرية المطلقة للمبدع إلى الحدود القصوى للعلاقة مع العالم الخارجي الذي كانت السلطة السوفييتية تهيمن عليها بصورة دائمة.

وإذا كانت قضية باسترناك تبدو على هذه الصورة فإن تفكيك الستالينية لم تكن لها حدود معينة ـ رفض السلطة لفقدان إمبراطوريتها على الإبداع ومصيره ـ وتبين كم كانت يقظة الأنتجلنسيا صعبة واستثنائية. في 27 أكتوبر / 1958 قام اتحاد الكتاب بطرد باسترناك ـ وهو ما يعني بأنه لم يعد له علاقة بالأدب، وهو شخص عادي وليس كاتبا، وكأنه لم يحصل على جائزة نوبل. وقد تمت عملية الطرد بعد مرور 48 ساعة على توزيع جائزة نوبل! وكشف ذلك عن أن اتحاد الكتاب لا يعدو أن يكون مؤسسة تابعة للدولة السوفييتية لا تلزمها أية قيم أخلاقية أخرى لا من القراء ولا من النقاد ولا الأكاديمية السويدية ولا من شخصية الكاتب الإنسانية. وكانت تلك بمثابة سابقة لا مثيل لها لخضوع الإبداع للسلطة بهذه الطريقة. ومما لا شك فيه، أن الأدباء أدانوا هذا القرار إلا أن غالبيتهم ظلت محايدة ولم تتأثر، وأنها استمعت إلى اجتماع اتحاد الكتاب دون أن تلقي بالمسؤولية على الكومسمول وغيرها من المؤسسات حيث كانوا يعاملون باسترناك مثل «خنزير يتمرغ في معلفه». وإذا كان الصمت مهيمنًا على صفوف المثقفين ـ ولم يمض على وفاة ستالين سوى خمسة أعوام ـ فإن فوضى الوعي كانت تتميز بالعمق.

وفي حواراتها مع آنا أخماتوفا «باريس، منشورات البان ميشيل

1980»، كانت ليديا تشوكوفسكايا، وهي شاهدة عيان لا يمكن الاستغناء عنها، سردت بطريقة مثيرة قائلة: ما الذي كان يكلف الأنتجلنسيا كل هذا الجحود من خلال صمتها البسيط؟ إن الرياء المنافق الذي وشى به الدكتور زيفاكو كقاعدة فرضتها السلطة أصبح موضوعًا لا يمكن للمثقفين احتماله. وقضية باسترناك فرضت هذا الرياء والنفاق والمواربة ردحًا من الزمن، تجسد ككاشف للأحداث مما استعجلت الولادة الأخلاقية عند الأنتجلنسيا السوفييتية.

لا تريد السلطة فقط الظهور تحت مظاهرها القاهرة بل أخذت تسعى نحو مصالحة الآخرين، وقبل كل شيء، الأموات الرموز منهم، حتى إن موتهم حجب في جانبهم المزعج والمتمادي مسألة تأهيلهم وإعادة الاعتبار إليهم. وظهر ذلك واضحًا في أحاسيس التكريم التي أقيمت إلى مايكوفسكي في عام 1958. إلا أن الشبيبة المثقفة لم تكن تفهم ذلك، بل إن الغاضبين منهم ادخروا تنازلاتهم من أجل التعامل بموجب طريقتهم في تنظيم قراءات القصائد الممنوعة حول تمثال مايكوفسكي وإقامة معارض الرسم المحظورة إلخ.

أسس غينزبورغ «سانتيكس» مطبوعة على الآلة الكاتبة، وهي مجلة خارجة عن كل الرقابة، وهذا ما سبب في فصله من الجامعة وإيقافه وإرساله إلى معسكرات الأشغال الشاقة. بينما واصل يوفتشنكو عمله الشعري على شكل اجتماعي. إن ضغوطات هذه الشبيبة الشجاعة وفشل «الليبرالية المضاءة»، ترجمت في التوازن الهش بين المجلات التي افتتح بعضها من جديد على الإنتاجيات الإصلاحية (وهذه حالة

ـ نوفي مير ـ حيث أخذ تفاردوفسكي مكانه في عام 1958 ـ وآخرون مثل «أكتوبر» التي كانت قلعة للمحافظين حيث توازنت شخصيات في المؤسسات الرسمية).

المؤتمر الـ22 للحزب الذي انعقد في عام 1961، سرع عملية القطيعة وأنعش المقاومة. وأبدى الحزب قلقه أكثر من انحراف المثقفين ومغايرتهم. في عام 1961، شخصيتان من الحركة المجددة أطلقتا قنابلهما المشكوك فيها. قام إهرنبورغ ويوفتشنكو بمهاجمة معاداة السامية المستترة في الاتحاد السوفييتي وأدانا الفترة الستالينية. إن معاداة السامية والنزعة القومية، تتشابكان وهما فكرتان تشعلان أسطورة المجتمع المرتبطة بالأممية. فالسلطة غير جديرة ولكن محاكمة برودسكي في عام 1964ـ وحيث تضاعف النفوذ في غياب التمرد الوطني على عاتق المتهم «تنوع حاذق لفكرة الكوسموبوليتية في سنوات ستالين» والأصول اليهودية لأصدقائه ـ بمثابة شهادة لعدالة الاتهامات الموجهة إلى كل من إهرنبورغ ويوفتشنكو، ساهمت آراؤهما في صياغة المثقفين الشباب الروس الذين بدؤوا يكتشفون بشك تدريجي أن اليهودية جزء غني من شخصيتهم. سعى المؤتمر الـ22 إلى تقديم الخلاصة الصعبة لليبرالية المقيدة ودعوة إلى العودة إلى النظام. في خطاب الحقيقة المدفوعة على الدوام من قبل خروتشوف، تم تعرية الستالينية علانية، واعترف الحزب بأن ضحاياه هي المجتمع بكامله، وهم ليسوا أكثر من أطفاله الذين وقفوا ضد نداء الحزب في تطوير الأدب وفن الواقعية الاشتراكية.

الرفض في رؤية داخل الإبداع فضاء مستقل عن السلطة قد تأكد من

قبل المؤتمر الـ22، لكن لم يكن ممكنًا إيقاف الحركة التي تتطوّر منذ عام 1953 وخروتشوف ذاته ترجرج نحو خيار المصالح اللامحدود، ورفض من قبل حزب قلق دائمًا من التغييرات الحاصلة، وفي الأنتلجنسيا المجدّدة حيث خروتشوف يبحث عن دعم ووسيلة من أجل التغلب على معارضي سلطته.

ولم تكن الثقافة بالنسبة له سوى وسيلة لتطوير سلطته، لكن يجب أن يدفع الثمن الباهظ لاستخدامها لمصالحه. وهذا الثمن، سيكون نشر عملين طاغيين بالنسبة للحزب: قصيدة يوفتشنكو «ورثة ستالين» التي نشرتها «البرافدا» في 12 أكتوبر 1962، ورواية سولجنتسين «يوم في حياة إيفان دينيسوفيتش» نشرت في الوقت ذاته في «نوفي مير» إذ وقف خروتشوف ضد هذا النشر لأنها كانت تتضمن مقاومة ضد السلطة.

وهذا ما يؤكد، كما فعل يوفتشنكو، أن الستالينية مازالت تهدّد لأن ورثتها مازالوا أحياء هنا، يتحدّثون كما فعل سولجنتسين، في «منفى الغولاك» بشكل عادي، متحدثًا باسم رفاقه القدماء الذين لم يتمكنوا من العودة من ذلك الجحيم، إنها المسيرة ذاتها، غير المقبولة من الحزب.. إنه الاعتراف بأن المثقفين بدؤوا يقولون الحقيقة وينقلونها إلى المجتمع، متحدين المسؤولين السياسيين، بل أكثر طالبوا بكشف الحساب باسم هذا المجتمع.

لم يعد الحزب الضمانة الوحيدة للمصالح الاجتماعية، بل إنه يحمل تهديدًا للمجتمع، وبدأ المثقفون يجدون وظيفتهم التقليدية في إيقاف القلق الاجتماعي في وجه السلطة، وليس في خدمته كما كان يريد لينين. «تأثير سولجنتسين» حاضر.. وكل من كان يحتفظ في أدراجه بمخطوطة،

بشهادة تراجيدية عاشها المجتمع، حملها إلى المجلات ودور النشر، والجمهور ينتزع من «نوفي مير» التي بدأت طباعتها تتناقص أمام الطلب، وهذه المرة بدا ذوبان الجليد قريبًا، وفي حالة ذوبانه يجرف الصرح الستاليني بكامله، لأن المجتمع، المضطرب بالاعتراف بمعاناته وآلامه، وجد في الأنتلجنسيا خلاصًا معينًا، وجرأة على تسمية المجرمين إلا أن المتواطئين لهم حضور على الدوام. فالدور الذي استحوذ على الأنتلجنسيا التي اعتقدت أنها أُصيبت في الصميم.. أكد بصورة نهائية استغلال كرامتها المستعادة، بحيث جعلها تفقد كل حذرها. وهنا يمكن تخيّل أن جائزة لينين جاءت لتتوّج سولجنتسين، وأعطت للمؤتمر الـ12 و22 شعار «العودة إلى لينين».

وهو مضمون لم يتقبّله الحزب أبدًا، بمعنى العودة إلى لينين، مما يعني عودة الشك إلى النفوس ثانية؟ وفي الأيام الأخيرة، كان من الممكن أن يقود البلد نحو طرق أخرى حيث تتعايش السلطة والمجتمع المدني. وإذا برهن أن هذا الاختلاف لم يطرأ على روحية لينين، فمن الطبيعي أن يكون المعنى الذي أرادت الأنتلجنسيا أن تعطيه إلى اللينينية عام 1962.

أمام هذه الإمكانية في الفقدان، أصبحت ساعة الحزب حاسمة، واستنتج بضرورة الانتهاء مع مسألة الإصلاح وزمن التنازلات وأشرفت أنصاف الحلول على الانتهاء إلى النظام الذي بدأ يتآكل، وهو يسعى إلى تأكيد خلوده، من خلال الانسجام مع السلطة الشاملة على جميع ميادين الحياة الاجتماعية الشخصية في التصادم النهائي بين خروتشوف والجهاز، ومن أجل أن ينقذ نفسه، كان عليه أن يتخلى عن الجزء الجوهري في عملية تحرير الوعي الذي يعني تحرير الإبداع.

من أجل هذا التخلي أخذت تتعاقب بسرعة هائلة.. ترك خروتشوف الصحافة بمهاجمة المعادين للستالينية، إهرنبورغ، الذي أدلى بآراء مسيئة للفن التجريدي من خلال زيارة معرض يرمز إلى التجديد، وفي نهاية مارس 1963، تراجع بصورة كاملة لأن الحزب تصادم مع المثقفين أثناء الاجتماعات الأيديولوجية التي فرضت العودة إلى الروح القومية الضيقة، في ميدان الثقافة، ومن ثم، تمكن المحافظون من الاستفادة من نتائج اصطفاء المثقفين.

إن نشر الأعمال الأكثر بروزًا ذات الروح التجديدية «صوفيا بيتروفانا»التي أصبحت «البيت المهجور» للكاتبة ليديا تشوكوفسكايا، حيث قصائد شالاموف التي قد وافق الناشرون على نشرها، سرعان ما تخلوا عنها، ولم تعد قيمة للذاكرة المستعادة. وهكذا انتصرت الأيديولوجيا ودفن الماضي التراجيدي تحت الشعارات الأكثر دوغمائية. الحزب الذي يعتقد أنه على حق على الدوام، أدرك أن هؤلاء الأدباء يريدون الحفاظ على حرية التفكير والتعبير.

إن صدمة اختفاء ستالين، وذوبان الجليد، وضعا موضع التساؤل عن جميع التأكيدات والمحظورات، والمواجهة بين المفهوم العالي لدور المثقف والمفهوم الثقافي التوتاليتاري للحزب. هكذا كان مناخ الاتحاد السوفييتي حيث كبر وترعرع الشاعر الشاب برودسكي، وقد وصل إلى عمر النضج في الوقت الذي صار فيه الشعراء في طليعة المعركة من أجل ولادة القيم الأخلاقية الجديدة، وفي الوقت الذي أثار المثقفون حريتهم في وجه المؤسسات، وأكدوا أن لا أحد غير المبدع، له الحق في تحديد ومراقبة الإبداع.

الأساليب التي فُرضت على برودسكي - بعد سنوات طويلة من الصمت، تحول إلى صراع مفتوح صاخب مع السلطة - إنهم شعراء أمثال باسترناك الذي يتماثل مع مصيره.. شاعر في الروح، يعرف أن أسلافه، الذين يكن لأعمالهم ووعيهم الأخلاقي الإعجاب، وجدوا في الترجمة طريق الحياة الذي يجنبهم السقوط في المساومة، وفي ترجمة «هاملت» أو ترجمة الشعراء الكوريين حيث كرّس كل من باسترناك وأنا أخماتوفا بدلاً من تمجيد الطغيان الذي لم يشرف معاصريهم.

إن دخول برودسكي في الحياة الناضجة، وفي الشعر «العيش من خلال الترجمة» رافقه صورة شخصيات مثقفين كبار لا يمكن التعامل مع أعمالهم، ومن خلال الآمال المعلّقة بهم كان ذلك يعني ذوبان الجليد، لكن في الوقت الذي بدأت فيه عبقريته الشابة تصل إلى الجمهور المتعطش لاكتشاف أدباء اليوم، بدأت المؤسسة بكاملها، تنقلب نحو القديم والمحظور. إن التزامن المطلق بين مصير برودسكي خلال تلك الفترة التي أدت إلى معسكرات الأشغال الشاقة، وتاريخ الصراع اليائس للأنتجلنسيا السوفييتية من أجل الولادة كان مؤثرًا وحاسمًا في الصراع. وكان برودسكي ضحية حتمية في مرحلة الجمود وأكثر من ذلك فإنه جسّد جيل الشباب في فترة ذوبان الجليد من أجل ولادة عالم جديد، يسيطر فيه الشعر المتحرّر والمنقذ، دون تقديم أي تنازل للسلطة. ولأن الأنتجلنسيا السوفييتية عاشت سنوات عديدة في حلم التغيير الراديكالي، أصبح برودسكي، ابنها النموذجي، في قلب هذا الحلم، لأنه لا يحتج على النظام فحسب، بل يتجاهله، ويضع نفسه خارجه: إنه الشاعر.

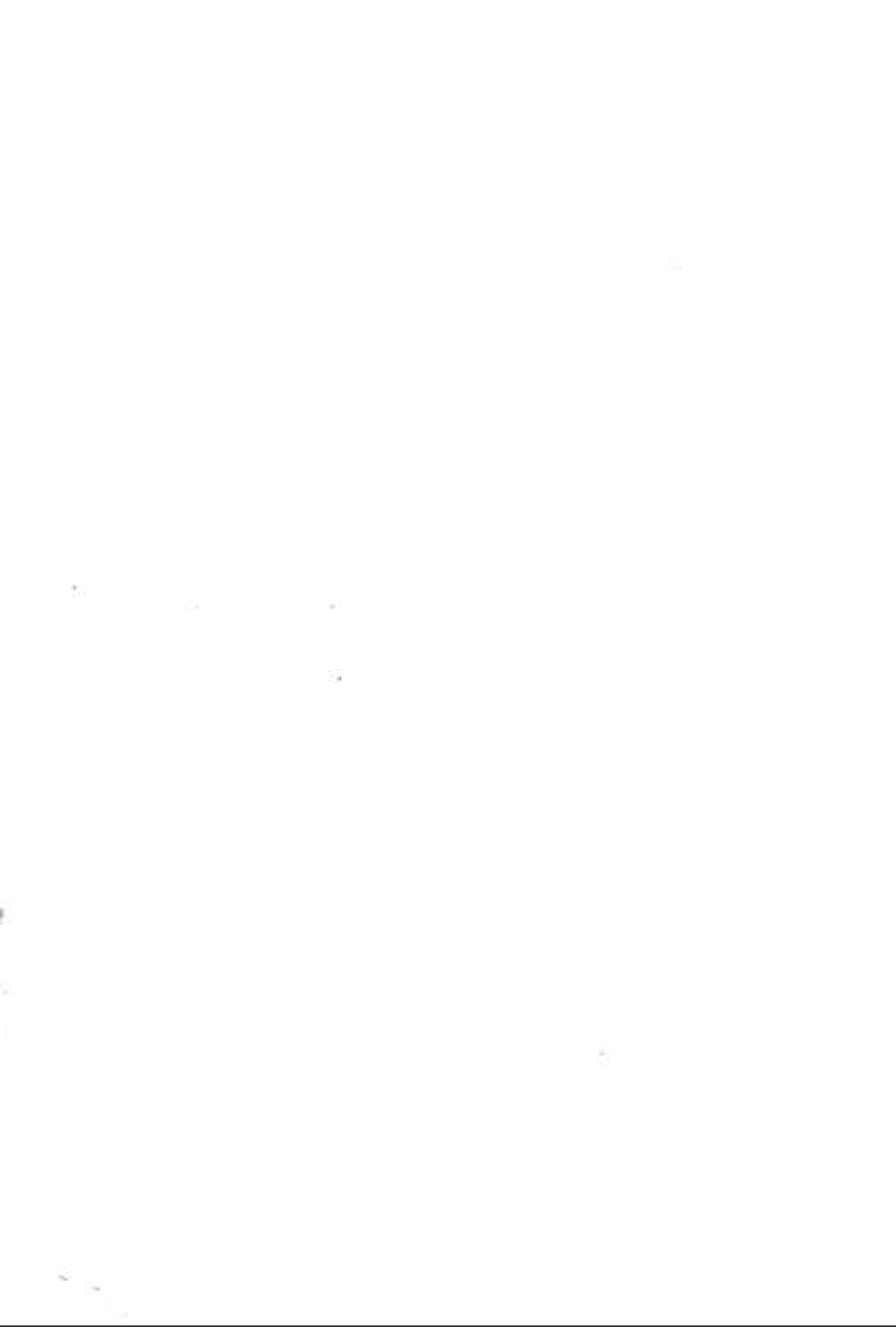
* ماذا يمكن للسلطة أن تقول للشعر؟

* عندما يحترق حلم التغيير، فمن المنطقي أن يكون برودسكي، ضحية النظام المرمم الذي استولى على محاكمته، وأصبحت المواجهة مفتوحة بين الشاعر والنظام، فتولد عالمان وخطابان، لا تفاهم بينهما.

لكن برودسكي لم يؤثر فقط على فشل المبادرة الأولى لذوبان الجليد، بل شهد أيضًا على الترسبات التي تركتها هذه المحاولة في الوعي، فألقي عليه القبض، وهمش في عالم الرجال الأحرار، وأُقصي عن عالم الإبداع، وأخضع إلى عالم المحظورات. وأخذت جائزة نوبل، معنى التكريس لانتصار الروح الحرّة والانفجار الفكري الجديد آنذاك.

إنه بالإضافة إلى ذلك يعني أن يكون برودسكي شاعر «ذوبان الجليد» يتسلّم جائزة نوبل في زمن ذوبان الجليد الثاني.

باريس . أبريل 1988



الفصل الأول

تخطيطات بيوغرافية

جانين ليفي

«كنت معجبًا على الدوام بشخصيات القرن التاسع عشر التي كانت لها القدرة على تشكيل مراحل حياتها: الطفولة، المراهقة، والنضوج. وكانت تبدو في غاية الغرابة، وإذا قُيض لي أن أستخدم هذه الكلمات، فذلك كانطباع أنني أوردها كفقرات أستشهد بها».

جوزيف برودسكي

ولكي أبدأ، وإذا كنت واثقًا ببيان الولادة، فإنني وُلدت في 42 يونيو عام 1940 في لينينغراد، يقول برودسكي في مقالة ظهرت في مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» عام 1979. في عمر الرابعة عشرة كان برودسكي يميل إلى الروح الوطنية العسكرية، يعشق الطائرات وبوارج الحرب، ولم يكن يبدو له أكثر جمالاً من ألوان العلم الأصفر والأزرق الذي ترفعه قوات الطيران الذي يشبه في شكله «مظلة» مفتوحة، وظل متعلّقًا برغبة العمل هذه في مجال الطيران، طيلة حياته، وكان عشقه للطيران يحل محل الحنين إلى المطارات القديمة. ودائمًا في الرابعة

عشرة من عمره، هذا الابن الجدير بأبيه الذي كان يعمل في البحرية، دفعه إلى أن يتقدّم إلى المدرسة البحرية، وقد نجح في امتحان الدخول، لكنه استبعد حسب الفقرة 5 المتعلّقة بالجنسية. «ولم يشبع حبي غير العقلاني للزي العسكري البحري، الذي تزيّنه الأصداف الذهبية»، وبقي هذا الحب أفلاطونيًا لو فكرنا في أن إقامته في السجن فيما بعد، حرّمت عليه حتى الخدمة العسكرية العادية.

في عمر الخامسة عشرة أقدم على أول مبادرة رفض هادئة، بتركه مقاعد الدراسة. وغالبًا ما كان يعاب عليه ذلك خصوصًا في محاكمته، أو بصورة أدق ترك المدرسة بكل معنى الكلمة، بتهوّر «كنت أرى رؤوسًا في غرفة الصف لا أستطيع تحمّل رؤيتها ببساطة، وهكذا ذات صباح شتائي جميل، وفي أوج الدرس، نهضت من مقعدي، وبطريقة مسرحية للغاية خرجت من غرفة الصف، عارفًا تمامًا أنني لن أعود إليه أبدًا». هذه الرؤوس التي لم يستطع تحمّل رؤيتها، كانت رؤوس رفاقه وأساتذته من لينين وديرجنفسكي التي كانت تزيّن جدران غرفة الصف.. وكان يعرف حقًا أنه كان يمر من عالم كافكوي إلى آخر، لكن في تلك اللحظة كان لا بد له من استبدال هذا العالم بأي عالم آخر. وهذا ما كان يجهله، ويعيب على نفسه ما قام به، ومن ناحية أخرى يحاول إقناع نفسه بأنه سيقدر على مساعدة والديه، كان والده قد طُرد من البحرية لأنه كان ينحدر من أصول يهودية، كان أولئك الثلاثة يعيشون بشكل تعيس من راتب أمه الضئيل والوحيد.

وفي عمر الخامسة عشرة، عمل في مصنع لصناعة المدافع، تحوّل فيما بعد إلى صناعة المكائن الزراعية وآلات ضغط الهواء.

برودسكي الشاب أصبح الآن «بروليتاريًا حقيقيًا»، ويشكّل جزءًا من «طبقة العمال» كما عرفّها ماركس. كان التصنيع في القرن التاسع عشر تقليديًا ويطلق عليه أهالي بطرسبورغ الترسانة ـ جميع المكائن التي نقل تسعين أو مائة بالمائة منها إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية. أما بالنسبة للإنتاج، فقد انحدر بشكل فجائي مثل فريق كرة القدم في لينينغراد أو في الاتحاد السوفييتي، يتحمّل خسارة الهزيمة. ولكنه سرعان ما ترك المكائن الزراعية، وقرر أن يصبح طبيبًا. وعن طريق المصادفة، كانت تلك الترسانة لصيقة بجزء من مستشفى، والقسم الآخر لصيق بالسجن الشهير «الصليب». وفي الأسفل يوجد جدار مصنعه، إذ يتشرف برودسكي بالعمل في المستشفى، في غرفة الموتى، وطالما كان يسير بخطى حثيثة، كان بإمكانه أن يرى السجناء يتجولون في باحة السجن الذي سرعان ما وجد نفسه فيه عندما تخلى عن الطب وكرّس نفسه للشعر. وكان يعمل من وقت إلى آخر على تمرير رسالة سجين من تحت الجدار وإيصالها إلى صاحبها بكل أمانة. يتشابه المصنع والسجن، من الخارج لأنهما شيدا في الوقت ذاته تقريبًا كأنهما جناحان لبناية واحدة. وإذا كان يختلط بعضهم بالبعض الآخر في روحية برودسكي ـ الأماكن والسجناء والعمال والممرضات والسجانين والأطباء «لا أعرف فيما لو أنه كان يكره سجينًا يمشي طولاً وعرضًا في الساحة الصغيرة في سجن الصليب، أو أنني أرى نفسي أدوس بقدميّ الرصيف».

لم تكن تختلف الإهانات التي مارسها رفاقه من طلبة البحرية عليه وحرّاسه عن العقاب الذي سببه له أساتذته أم رفاقه العمال. الجميع كان يسكن في شقق جماعية، ولم يكن أحد يمتلك غرفة منعزلة، وبالنتيجة، لا

الصبيان ولا الفتيات يدعون بعضهم بعضًا، وكانت المغامرات العاطفية تتلخص في تلك الجولات، وإذا عاقبوا العشاق للسير كيلومترات، كما يلاحظ برودسكي، فإن الدولة كانت تحصل على مبالغ فلكية جراء ذلك «كانت المخابرات القديمة على أرصفة الأحياء الصناعية، والمقاعد الخشبية والأسيجة وبوابات البنايات الرسمية الباردة، مسرحًا معتادًا لانتعاش العشاق».

في عام 1964 تم إلقاء القبض على برودسكي، وحكم عليه بالسجن خمسة أعوام مع الأشغال الشاقة في عمر الرابعة والعشرين، وهذه الفترة التاريخية هي التي شكلت نواة هذا الكتاب. أطلق سراحه في عام 1966، وعاش في الولايات المتحدة منذ عام 1972، وفي خريف عام 1978 منحته الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للآداب.

جانين ليفي

الفصل الثاني

صناعة المذنب

إيفيم إيتكند

ذات يوم، في 92 نوفمبر عام 1963، وجد سكان لينتغراد، الذين لم يسمعوا حتى ذلك اليوم، باسم برودسكي، في صحيفتهم «لينينغراد المساء» مقالة نقدّمها اليوم، بعد مرور ربع قرن إلى عناية القرّاء:

المتطفل الاجتماعي على هامش الأدب

شاب صغير، يدّعي نظم الشعر، ظهر منذ بضع سنين في الحلقات المتسلّقة والطالعة حول الأدب في لينينغراد، يرتدي سروالاً من المخمل، ويحمل بيده حقيبة مليئة بالأوراق التي لا يفارقها أبدًا، في الشتاء يخرج دون قبعة، وشعر رأسه الأشقر مغطى بكتل الثلج.

أصدقاؤه يطلقون عليه بكل بساطة - أوسيا - والآخرون يسمونه باسمه الكامل: جوزيف برودسكي. كان يتردّد على جمعية الكتّاب والأدباء المبتدئين حيث كانت اجتماعاتهم تعقد في بيت الثقافة، لكن الشاعر بالسروال المخملي قرّر أن العمل مع الجمعيات الأدبية لم يكن جديرًا بطبيعته السخية، حتى بدأ يلّمح للشباب الآخر في تلك الجمعيات بأن

من شأنه تعطيل الإبداع. بأي شيء كان هذا الشاب، الواثق كثيرًا بنفسه، يسعى إلى الدخول في الأدب، وفي جعبته لم تكن سوى عشرين قصيدة، مكتوبة في دفتر مدرسي، والجميع يشهد على تعاسة رؤيته للعالم مثل قصائد: المقبرة سأموت.. سأموت. وعناوين هذه القصائد كافية لأن تشكّل فكرة عن الاتجاه الذي يميّز أعمال برودسكي، وأنه يقلّد الشعراء الذي يبثون التشاؤم وعدم الإيمان بالإنسان، وأشعاره تعبر عن الانحطاط والحداثة والفوضى الأكثر ابتذالاً ومحاولاته لم تكن تدعو إلا إلى الرثاء؟ وبالإضافة إلى ذلك، مع كل الاستقلالية، وهو عاجز عن الإبداع، ويحتاج لتلك الصرامة الأولية، ويحتاج أيضًا إلى المعرفة والثقافة، وأية معارف يمكن أن يتحلى بها جاهل، شخص لم يكمل حتى دراسته الثانوية؟

وهنا، وبأي تكبّر، يعلن عن إبداعه المقلّد لـ«غموض في القرون الوسطى». «فكرة هذه القصيدة، هي تشخيص تمثيل العالم»، وهي أنشودة في الابتذال، وسيتحقق هذا الهدف من خلال تشكيل هذا التمثيل الدقيق، والذي يعبّر عنه على لسان عشرين شخصية ممثلة نوعًا ما. هذه الصياغة تأخذ شكل الأغاني العاطفية» .

ويجب ملاحظة الموظفين التجاريين أن الدكاكين الريفية تتوله أيضًا بالأغاني العاطفية، وهو يفسر فيه بلكنة ممزقة، ويصاحبها عزف على الغيتار. ومن هنا ما هي رغبات برودسكي!

«من أجل تجنّب هذه التيارات الموبوءة/ أريد أن أخفي نفسي في المكتبة».وهنا يطرح أحد متطلباته: «تتغذى أذني الجائعة والتواقة/ ولن يكون إلا بالبسكويت»

هنا اعتراف وقح بصورة علنية

«أضعضع السخافة العامة/ لا أعيش إلا في هذا الخبز»

وهنا مقطع مما يسمى قصيدته «الغموض»:

«أعيش في الشوارع/ خطواتي مثل المقص/ أتقدّم بهدوء/ عبر اليوم الأبيض، في مفترق الطريق، مثلما أمشي على الورق/ أية مسيرة، في الاتجاه المعاكس، في الظلمات».

وهل هذا ما يطلق عليه الأغنية العاطفية؟

إنه بكل بساطة شيء غريب! وعندما تخلى عن الجمعية الأدبية، وأصبح فنانًا وحيدًا معزولاً، بدأ برودسكي يجمع كل قواه من أجل أن ينال الشعبية عند الشباب. فحاول أن ينظّم قراءات شعرية عامة من وقت إلى آخر، ويحدث أن كانوا يرفعونه حتى المنبر، وهو يلقي بعض أشعاره في أروقة جامعة لينينغراد، في مكتبة مايكوفسكي في بيت الثقافة ـ لينسوفييت ـ فكان العشاق الحقيقيون للشعر يبتعدون عن أغنياته العاطفية ومقاطعه الشعرية. لكنه يجد بعض «قابلية التفاعل» من الأولاد والصبايا غير الناضجين، الباحثين عن شيء ما «أكثر قوة» و«وأكثر حدة» لينجحوا في النشوة أمام أشعار برودسكي.

هؤلاء المراهقون يشكّلون جزءًا في أوساط الأدب المزيف. إنهم يتحلقون حول شعراء الموضة، وينظمون تظاهرات لقراءاتهم العامة، ويلاحقون التوقيعات، إنهم يخربشون القصائد أيضًا، وهكذا، على سبيل المثال، خرج واحد منهم لتوه من المدرسة الثانوية، ينتزع بجهد

كبير بعض الأشعار، ويعتقد أنه شاعر منجز، وهذا يعني أنه لا يفعل سوى كتابة الشعر الرديء.. هذا الشاعر المتخيل لا يعمل، لكنه لا يفهم أي شيء في الأدب، وهذا لا يمنعه من أن يعيش حياة «مبدع».

كيف يفهم هذه الحياة: إنه يستيقظ من النوم متأخرًا، ومن ثم يتجول على بيرسكتيف نيفسكي، وفي بيت الكتاب، يداعب بائعة كتب الشعر، لوسيا ليفشي، أملاً في استخراج بعض ما هو جديد من شعر الموضة.

ومن ثم يذهب إلى ناشر، يطلب دعمًا ماديًا إلى هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون على هامش الأدب، وفي المساء، يذهب إلى المطعم، وإلى المقهى، يأخذ مكانه على طاولة صغيرة، ويطلب مشروب الكوكتيل، ويلتحق به أحد الأصدقاء، الذي يسمى جيف أو جاك، ومع فتاة تضع النظارات بصورة إجبارية وشعرها الأشعث، وهكذا يمر النهار.. وجود عديم المعنى، ودون فائدة.

من هم الذين كوّنوا المحيط الذي يحلق فيه برودسكي والذين يدعمونه؟

ماريانا فولنسكايا، وُلدت في عام 1944، حياتها بوهيمية، تخلّت عن والدتها المقعدة، التي كانت تهتم كثيرًا بابنتها، صديقة فولنسكايا، نيجدانوفا، تنظّم الدعايات لرياضة اليوغا وكل أنواع الصوفية، فلاديمير شيوو غولتز الذي رأينا مزايا وجهه على الملصقات الانتقادية ومعاونة الميليشيا..

هذا الـ«شيوو غولتز» لا يخجل من اختلاس مصاريف الجيب من أمه، ويأخذ النقود من راتبها الشهري الهزيل، والمجرم أناتول غيشمان،

والكسول إيفيم سلافنسكي، الذي يتسكّع على الرصيف وراء أصحاب الحملات الجيولوجية، وبقية الوقت لا يعمل ويدور حول الأجانب، ومن بين أقرب أصدقاء برودسكي، يمكن إيراد اسم فلاديمير غيراسينوف، الشخصية التي تثير الشفقة لهذا الأدب الغامق، والعاشق الكبير لكل ما هو غرائبي وغريب، وشيلنسلكي، المعروف تحت اسم جورج الصغير.

هذه المجموعة لا تسعى إلى إغراق برودسكي بالثناء والمديح، بل تبذل قصارى جهودها من أجل نشر نماذج من أعماله بين الشباب، وهناك شخص اسمه ليونيد آرنسون، الذي يطبع أعماله على الآلة الكاتبة، وغريغوري كوفانيف، وفالنتينا بابوشكيناوف، شيروتوف، الملقب بـ«المذنب»، فهم يعتبرون من عشاق أشعاره.

وكما نرى فإن جوزيف برودسكي ليس صعبًا فيما يتعلّق بعلاقاته، ولا تهمه الطريقة التي تصله بها.. التي يتدبر بها، ويتأمل أنه يشكّل جزءًا من «النخبة»، ولا يعتبر نفسه شاعرًا فقط، بل الشاعر بين جميع الشعراء».

إيغور سيفريانني قال ذات يوم: «أنا العبقري إيغور سيفريانني، أفتخر باكتساحي شاشات كل المدن، وبأني أحتل قلوب الجميع».

وبالنسبة له لم تكن تلك سوى ثرثرة، وفي المقابل فإن برودسكي مقتنع بجديّة بأنه «يحتل قلوب الآخرين».

هنا مثال يدلّل على فكرة برودسكي نفسه:

في 4 فبراير من عام 1960 في بيت الثقافة ـ غوركي ـ عقدت أمسية شعرية للشباب، ألقى برودسكي فيها بعضًا من أشعاره، وثمة من يقدره

على قيمته الحقيقية، وخرج من القاعة من يقول: «هذا ليس شعرًا بل هراءً»، فأجاب برودسكي بكل ثقة بالنفس: «ما منح لـلمشتري لا يمنح للثور».

أي كبرياء وغطرسة؟ أليس في ذلك عدم حياء؟ الضفدعة تأخذ نفسها على أنها« المشتري»، وتنفخ نفسها بكل قواها، من سوء الحظ، لم تحضر تلك الأمسية شخصيات ـ من ضمنها الرئيس، الشاعرة ـ ناتاليا غرودنينا ـ لم يتصدَّ أحد للرد الذي تجاوز كل حدود الوقاحة وعدم الحياء.

لكننا لم نتطرق بعد للجوهري، لا تتحدد ممارسات برودسكي بالشعوذة الكلامية، هذه الأفكار الجنائزية لا تمثّل إلا جزءًا من هذه الدعابات «البريئة»، بل نجد عنده أشعارًا تعكس «عقيدة» المؤلف التي تظهر بشكل أكثر وضوحًا «نحن ـ غبار النظام الكوني» يعلن بكل سلطوية في قصيدته «استبطان» في أغسطس، وفي قصيدة أخرى مهداة إلى نونا. إس، كتب «أمنح النغمة إلى نونا، إلى إيفا، لكي أعيش وأكذب، وأزخرف الحكايات الأسطورية حول الحياة».

وفي النهاية يقول أيضاً «إنني أحب الوطن الأجنبي».

برودسكي طافح بالإخلاص، وبالفعل فإنه لا يحب وطنه المولود فيه، ولا يخفي ذلك، وأكثر من ذلك أنه نضج لفترة طويلة من المخططات التي من شأنها أن تخون الوطن.

ذات يوم كان مدعوًا إلى سمرقند من قبل صديقه أو. شاكماتوف ـ أدين بجريمة الحق العام فيما بعد ـ رحل برودسكي للالتحاق به فورًا، حاملاً دفتر أشعاره، «موضوع فلسفي» لشخص ما يدعى آ. أومليانسكوف.

ومن الموضوع الفلسفي يزعم بأن الشاب لا يجب أن ينشغل بواجباته إزاء الوالدين والمجتمع أو الدولة، وهذه الواجبات لا تعمل إلا على منع الشخصية من التفتح والازدهار بحرية.

لا يشترك البشر على الأرض في الطبائع النبيلة والخسيسة، البعض يتجاهلها، ويقتنع في الطعن بها، وآخرون من النبلاء يشجعونها» .

هذا هو الدرس الذي يعطيه هنا، الشخص كاستنتاج، ويستعيد أفكاره من أسوأ ما تحمله ترسانة الإيديولوجية الفاشية.

أمام أعيننا محضر استجواب شاكماتوف.

وفي مجرى التحقيق القضائي، أعلن أنه قابل، مع برودسكي، مواطنين أجانب في فندق سمرقند، وأحدهم ميلغن باي، أمريكي، دعاهم إلى غرفته من أجل النقاش:

ـ عندي مخطوطة لن تنشر هنا أبدًا. يقول برودسكي:

ـ هل تريد أن تعرف ذلك؟ ـ بكل مسرة، يجيب ميلغن:

وبعد أن يتصفح المخطوطة:

ـ مفهوم.. إننا سنطبع لك هذه المخطوطة لكن تحت أي اسم؟

ـ أي اسم تقترحونه غير اسم المؤلف.

ـ تمام.. سنختار له اسمًا من عندنا: جون سميث.

وفي اللحظة الأخيرة، ارتعب كل من برودسكي وشاكماتوف خوفًا مني وبقيت مخطوطة الموضوع الفلسفي» في جيب برودسكي، هناك

في سمرقند، سعى برودسكي إلى إنجاز خطته وخيانة وطنه، فقد ذهب إلى المطار برفقة شاكماتوف بقصد الإقلاع بطائرة والهرب إلى خارج الوطن، وقد وقع اختيارهما على طائرة لكنهما عندما أدركا أن خزان الوقود لم يعد كافيًا لاجتياز الحدود، قرّرا انتظار فرصة أفضل.

وهنا البورتريه التعيس لهذا الرجل، كانت كتابة القصائد عبارة عن فوضى، وتشاؤم وخلاعة وإباحية، ومليئة بخطط الخيانة.

ومع ذلك، فقد اعتبر برودسكي شابًا صغيرًا، وقد تم العفو عنه كثيرًا، وتوجب عليه عمل تثقيفي مهم، وتذكيره أكثر من مرة بالمسؤوليات الملقاة على عاتقه من خلال قياسه بأنشطة معادية للمجتمع.

لم يستفد برودسكي من العبر والدروس والاستنتاجات التي فرضت عليه، وواصل حياة كسولة، هكذا قرابة أربعة أعوام، هذا الشاب البالغ من العمر 26 عاماً، المعافى صحيًا، لا يمارس أي عمل مفيد للمجتمع، يعيش من الأعمال الصغيرة المؤقتة، أبوه مصور ومراسل موسمي لصحف لينينغراد، يعطيه بعض الأموال أحيانًا، هو لا يوافق على تصرفات ابنه، مع أنه القيّم على مصروفاته، فقد اعتاد برودسكي أن يعود إلى رشده، في نهاية المطاف، ويبدأ العمل، ويتوقّف عن الحياة على حساب والديه والمجتمع، لكن لا، من المستحيل أن ننتزعه من حلمه، وهو مستعد لاستخدام جميع الوسائل المتاحة حتى الأحقر منها.

ومن المؤكد أنه يجب التوقّف عن تدليل كسل الأدب، وفرد مثل برودسكي لا مكان له في لينينغراد.

ما الذي يجب أن تختزله من الكلام الذي قلناه؟

لا يشمل ذلك برودسكي فحسب، بل جميع من يحيطون به، استعاروا منه الطريق الخطر. ينبغي وضع حد لهم، وينبغي على الكسالى من أمثاله الذين يتسلّقون على الأدب أن يلطموا بقوة، ويجب أن نجعلهم يتعلّمون الرغبة في تحريك المياه الراسبة.

لماذا اعتقدت صحيفة لينينغراد المساء أنه من الأفضل أن تركز رمايتها على شاب غير معروف لدى الجمهور، الذي لم ينشر بعد شيئًا، والذي لم يقع في أية فضيحة؟

الاتهامات العشرة الموجهة إلى الشاعر

الاتهام الأول

يبدو أن برودسكي تسلّق سلالم التطفل الاجتماعي وحده.. هكذا؟ المجتمع السوفييتي محكوم بالسلطة الجماعية، وهذا الشاب الأصهب يريد أن يدخل بمفرده في الأدب، ويتجاوز النظام المبني؟ توجد روابط أدبية حيث يتمكن الشباب من أن يتعلّموا تحت عصا الأساتذة المعتمدين. ويقال إنه يريد أن يفعل ذلك بمفرده، ويشكك في النظام برمته، ويمكن ملاحظة أن الكلمة الدقيقة المستخدمة من قبل المحرّر: «إيدنوليتشنيك» ـ الاستخدام الفردي ـ الذي يستخدم للفلاحين الذين يرفضون أن يعملوا ضمن الكولخوز ـ المزارع الجماعية ـ وكان هؤلاء الفلاحون يمتثلون إلى الغولاك، ويرسلون إلى سيبيريا، هذا هو المعنى الحقيقي لهذه العبارة.

إن جميع قصائد برودسكي «كتبت في دفتر مدرسي صغير» تشهد على الرؤية الكئيبة للعالم من قبل كاتبها، وكل تمرّد ضد السلطة الجماعية يسمح بالتفكير في الموت.. وهل سبق أن رأيتم ذلك عند إنسان سوفييتي؟ و«رعايانا» يجب أن يكونوا متفائلين.. «الحياة أصبحت أفضل، بل أكثر ابتهاجًا»، ذلك ما أكده ستالين، وفي عام 1963، على الرغم من ذوبان الجليد، فكان لا بد من توفر الروح التفاؤلية على الدوام، وهذا المتطفل الشرير يقلّد «الشعراء الذين ينشرون التشاؤم وعدم الإيمان في الإنسان»، غير عابئين بحقيقة أنها بمثابة اقتراف الخيانة العظمى، لكن هذا ليس كل شيء، فحالته أكثر خطورة، والمقالة هذه تشير إلى قصيدته «المقبرة». ويحتوي الدفتر المدرسي الصغير لبرودسكي على أشعار ترتكز على هذه الفكرة، بينما هي لا تسمى فقط «مقبرة» بل «مقبرة يهودية قرب لينينغراد». إذن لم يكن السبب الوحيد وراء موضوع القبر، ودون أن يقول ذلك بوضوح، لأنه لا يفهم إلا من قبل عدد قليل، فقد تم اتهامه بالقومية اليهودية.

مقبرة يهودية بالقرب من لينينغراد

جذع إنسان مسيج بأوتاد وألواح من الشعر يرتاح جنبًا إلى جنب وراءه / قضاة، تجار، موسيقيون، ثوريون / من أجلهم يغنون / من أجلهم يكتنزون / والآخرون يتساقطون / ولكن قبل كل شيء يدفعون الضرائب ويحترمون رجال الشرطة / وفي العالم المادي دون منفذ

تعلق التوراة / يبقون مثاليين / هل إنهم متنبئون؟ / هل إنهم عميان؟

إنهم يعلمون الأطفال أن يكونوا صابرين / وأكثر عنادًا وإصرارًا على الدوام / لا تبذروا القمح / لا تبذروا القمح أبدًا / بل دعوه ينام في الأرض الباردة كالحبات / ولا تجعلوها تنام أبدًا / أرض نكسوها / ونشعل السجائر.

بعض الأشعار مقطوعة من محتواها، يمكن أن تفسّر بأنها ذات «نزعة قومية»، وهذا ما كان يقصد من إظهاره كتابة المقال. لم يعترف برودسكي بأنه يهودي، وفي ستوكهولم، سأله صحافي ما إذا كان يعتبر نفسه يهوديًا، فأجابه: «أشعر بأنني يهودي، إنما لم أتربَّ على هذه التقاليد، لكن لغتي الأم هي الروسية دون أدنى شك». وكان كل ما يمت إلى القومية، سواء كان يهوديًا أم أمريكيًا، غريبًا على طبيعته بشكل عميق. وهذا الكلام الجارح كان خطيرًا بالنسبة لشاب يهودي، وكان مضمرًا في المقالة التي نشرتها صحيفة «لينينغراد المساء».

الاتهام الثالث

وقد تحدّثنا عنه آنفًا عن «الانحطاط» و«الحداثة»، وبعبارة أخرى، وبموجب المصطلحات السوفييتية المستخدمة، فإن برودسكي برجوازي وغريب على الواقعية الاشتراكية، وأكثر من ذلك، إنه يبحث عن الغموض واللامعقول والعبث، وهذه إشارة لاحتقار عميق، بالنسبة للقارئ، وبالنتيجة، فإنه يحمل أيديولوجية غريبة على الشعوب.

الاتهام الرابع

«إنه يفتقر إلى المعرفة والثقافة.. أية معرفة يمكن أن يمتلكها جاهل، شخص لم يكمل حتى دراسته الثانوية؟» هنا أيضًا، إنه انتهك القوالب

الجاهزة: «يجب على الإنسان السوفيتي أن يتبع المسالك والمناهج التي تقررها السلطات، ولا يمكن قبول رجل متعلّم ذاتيًا، وهذا ليس إلا شكلاً من أشكال النزعة الفردية البرجوازية، وكل محاولة للتحرّر من الطريق المرسوم يشكل طريقة للتمرّد.

الاتهام الخامس

قصيدة «الغموض» لبرودسكي، توجد بالفعل، وهي معنونة بـ«تطواف مقدّس»عرفت نجاحًا كبيرًا بين أوساط الشباب في سنوات الستينات، وهي قصيدة استعارية رمزية، لم تهدف إلا إلى إثارة غضب نقّاد الحزب.

الاتهام السادس

أجهد برودسكي نفسه ليشارك في القراءات العامة، واستنهض اهتمام «الشباب غير الناضج» الذين ينبحون مثل الكلاب من النشوة».. خطر رهيب! تمرّد ضد السلطة الجماعية دون ارتباط بأي تنظيم، يريد أن يمارس تأثيرًا على الشباب، هنا نحن نمس التمرّد.

الاتهام السابع

لم يكن جوزيف يعمل، كسول ومتطفل لا يفعل شيئًا سوى كتابة الأشعار الرديئة، سواء كانت أشعاره جيدة أم رديئة، ليس هذا جوهر المشكلة: كتابة الشعر ليست مهنة مثلما يعمل جميع الناس الذين يذهبون إلى المصانع أو يكنسون الشوارع، وإلا فالإنسان يعيش «وجودًا خاليًا من الأحاسيس ودون فائدة للآخرين».

الاتهام الثامن

مَنْ هم أولئك الذين يشكّلون محيط برودسكي؟ ماريا ما فوليانسكايا، فلاديمير شويغولتز وأناتولي غيشمان، إيفيم سلافسنكي، ليونيد آرانسون.. كل تلك الأسماء تنحدر من أصول يهودية. امتداد لفكرة قصيدة «مقبرة» الوطنية اليهودية. ومَنْ هؤلاء جميعًا؟ إنهم أشخاص يدعون للرثاء يدورون حول الأدب، هواة غرباء، ومجرمون ضد الحق العام.

الاتهام التاسع

يتشكى برودسكي من اضطرارات الحياة مثل أي واحد يكذب: «.. العيش والكذب، يخترع الحكايات العجيبة حول الحياة».. من المؤكد أن كتّاب المقالة يعرفون جيداً ليس فقط هذه الأشعار، بل القصيدة الموجودة في دفتره المدرسي ذاته والمعنونة «أثر».

اروِوا النصب التذكاري / في أعماق الشارع الطويل في المدينة/

حيث يوجد في مركز الساحة الكبيرة / ثمة نصب تذكاري / يمكن أن يسجل في أي مجموعة / لأنه سيصبح / بنائيًا وواقعيًا / اروِوا النصب التذكاري / الذي لا يزعج أحدًا / على سفح الهضبة / نزرع أزهارًا / إذا ما سمح بذلك رئيس البلدية / ساحة صغيرة / وأطفالنا / يصوبون أنظارهم نحو/ الشمس البرتقالية الكبيرة / يتخذون من الرمز على الهضبة / لمفكر معروف / موسيقي/ أو جنرال / على سفح الهضبة ـ إنني أضمن ـ / بأن الزهور / ستنبت كل يوم / اروِوا النصب التذكاري / الذي لا يزعج أحدًا./ حتى السائقون / يعجبون بظلالهم

الصامدة / في الساحة / يعقدون المواعيد / اروروا النصب التذكاري / من أمامه نمر ونوسع الخطى نحو عملنا / بجواره / يلتقطون صورًا للأجانب / في الليل / تضاء من كشافات النور من الأسفل / اروروا النصب التذكاري كذبًا.

الاتهام العاشر

كما قال برودسكي في كل الرسائل «نضج من خطط خيانة وطنه منذ زمن طويل». وعلى هذه الجريمة كان من الممكن أن تحكمه المحكمة بالموت، أجل، برودسكي كان مستعدًا لخيانة وطنه، مع صديق، ذهب إلى المطار، وكان يخطّط من أجل الاستيلاء على طائرة ليهرب إلى الخارج». ولو أنهما تركا هذه الخطة، فقط لأنهما شعرا بأن «خزان الطائرة لم يكن وقوده كافيًا لاجتياز الحدود». كيف تمكن هذان الشابان أن يدركا أن الوقود غير كاف؟ كان ينبغي، على الأقل، أن يكونا قادرين على قيادة الطائرة، لكن صحيفة «لينينغراد المساء» لا تهتم بهذه الترهات وسفاسف الأمور.. ماذا ينفع أن نرتبك بظاهر الحق؟

وفي الاستنتاج: إن فردًا مثل برودسكي لا مكان له في لينينغراد، وبعبارة أخرى، يجب أن يختار المنفى، أن يلقى عليه القبض، ويرسل إلى معسكرات الأشغال الشاقة، أو ببساطة أن يُبعد كمتطفل اجتماعي.

هكذا إذن تنغلق مقالة صحيفة «لينينغراد المساء»، وهي الأولى التي عرضت حالة الشاعر وأعماله، الذي سيفوز بجائزة نوبل.

دق جرس الصيد، في شكله النموذجي، وهو ما يسمى الوشاية السياسية، وعلى عكس النميمة الجارية التي لا تظهر إلا على الوثائق

السرية من قبل رجال الشرطة، وهدفها إثارة نقمة الشعب، وإطلاقه ضد الكسول وطالب الملذات. «أنتم جميعًا» في الأساس قراء صحيفة «لينينغراد المساء» وتعملون بجد من الصباح حتى المساء، وتحصلون على لقمة عيشكم من عرق الجبين، بينما هذا الشاب اليهودي الكسول، وهو بصحة تامة، دبّر سخافات، ويتصور نفسه مبدعًا، يمضي وقته في ثرثرة المطاعم وليس لديه سوى فكرة واحدة: الاستيلاء على طائرة والتنزه بسروال الجينز، وتمتّع بصره بالنظر إلى مشاهد الستريبتيز»

إن الاتهام بالتطفل الاجتماعي يتضمن نتائج خطيرة. في 4 مايو 1961، سنّ مجلس السوفييت الأعلى قرارًا حول الصراع ضد التطفل الاجتماعي، وطرد المذنبين خارج المدن الكبرى. «يتعلّق بتكثيف الصراع ضد الأشخاص الذين يتملصون من العمل الاجتماعي المفيد، ويعيشون حياة غير اجتماعية من التطفل». صُودق على هذا القرار، وتم تطويره في 10 مارس 1963 في مجرى جلسة مكتملة للمحكمة العليا، وفي أحسن الأحوال، كان برودسكي متهمًا بالإبعاد، وأشعاره لم تكن سياسية، لكن كل ما كان يفعله، ويكتبه، ويفكر به، كان «مغايرًا».. هل يمكن أن نغفر له ذلك؟

الفصل الثالث

المحاكمة

فريدا فيغوروفا

حي ديرجنفكي

مدينة لينينغراد، شارع فوزتانيا، رقم 26

القاضي: سافيليفا

18 شباط / فبراير

القاضي: ما هي مهنتك؟

برودسكي: أكتب القصائد، وأقوم ببعض الترجمات وأفترض...

القاضي: احتفظ بافتراضاتك لنفسك.

اعتدل بقامتك ولا تتكئ على الحائط وانظر إلى منصة المحكمة وأجب على الأسئلة كما يلائم المحكمة. (أي وجه إجابتك إلي) وامتنع فورًا عن تسجيل الملاحظات وإلا طردتك (الكلام موجه إلى الشاعر برودسكي): هل تمارس عملًا منتظمًا؟

برودسكي: كنت أفكر بأن عملي منتظم.

القاضي: أجب على الأسئلة.

برودسكي: أكتب القصائد وأفكر بأنها ستنشر، وأفترض...

القاضي: وماذا نفعل بافتراضاتك، أجب على السؤال المحدد: لماذا أنت عاطل عن العمل؟

برودسكي: إني أعمل في مجال كتابة القصائد.

القاضي: لا يهمنا ذلك، ما نريد أن نعرفه، مع أي مؤسسة تعمل وما هي علاقتك بها؟

برودسكي: كان لدي عقود مع دار النشر.

القاضي: وهل تمتلك ما يكفيك للعيش؟ ما هي؟ ولأي تاريخ يكفيك؟ وأي مبلغ؟ حدد ذلك.

برودسكي: لا أذكر بالضبط. كل المعلومات لدى المحامي.

القاضي: لكني أستجوبك أنت.

برودسكي: ظهر لي كتاب من ترجمتي في موسكو، (ويذكر له العناوين).

القاضي: ما هي تجربتك المهنية وكم تستغرق من الوقت؟

برودسكي: يعني تقريبًا...

القاضي: ليس تقريبًا، هذا ليس جوابًا.

برودسكي: خمسة أعوام.

القاضي: أين عملت؟

برودسكي: في مصنع... ومع طاقم من الجيولوجيين.

القاضي: ما هي المدة التي عملت بها في المصنع؟

بردسكي: عام واحد

القاضي: وبأي صفة؟

برودسكي: عامل.

القاضي: ما هو اختصاصك بصورة عامة؟

برودسكي: إنني شاعر، ومترجم.

القاضي: من يقرر أنك شاعر؟ ومن صنّفك بين الشعراء؟

برودسكي: لا أحد (بدون أي تحد) ومن صنّفك بين بني البشر إذن؟

القاضي: وهل درست لتحقيق هذا الهدف؟

برودسكي: أي هدف؟

القاضي: هدف أن تصبح شاعرًا، أنت لم تحاول إكمال دراستك العليا وتحضر نفسك من أجل أن تتعلم...

برودسكي: لم أكن أفكر بأن هذا الشيء يمكن تعلمه على مقاعد المدرسة.

القاضي: إذن... كيف تصبح شاعرًا؟

برودسكي: أفكر بأن.. (وهو مشوش)... هذا الشيء هبة من الله...

القاضي: هل لديك طلب التماس وإعادة نظر تقدمه إلى المحكمة؟

برودسكي: أريد أن أعرف لماذا ألقي علي القبض؟

القاضي: هذا سؤال وليس طلب التماس وإعادة نظر.

برودسكي: في هذه الحالة ليس لدي طلب التماس وإعادة نظر أقدمه.

القاضي: هل للدفاع أسئلة؟

المحامية: أجل. أيها المواطن برودسكي، هل أعطيت الأموال التي جنيتها لأهلك؟

برودسكي: نعم

المحامية: هل يعمل والداك أيضًا؟

برودسكي: إنهما متقاعدان.

المحامية: هل تعيشون معًا؟

برودسكي : نعم.

المحامية: بالنتيجة إنك تساهم بمواردك في ميزانية العائلة.

القاضي : أنت لا تطرحين الأسئلة بل تعممين، وتستعدين على استخلاص الأجوبة، لا تعممي بل اطرحي الأسئلة.

المحامية: أنت مسجل في مصح عقلي.

برودسكي: نعم

المحامية: هل كنت مريضًا؟

برودسكي: نعم، منذ نهاية ديسمبر 1962 حتى يناير من هذا العام في موسكو، في ملتقى «كاشنوف».

المحامية: ألا تعتقد بأن تمردك هو الذي أدى بك إلى عدم الاحتفاظ بالعمل ذاته لمدة طويلة؟

برودسكي: ذلك ممكن بالتأكيد، في الحقيقة لا أعرف شيئًا، كلا، لا أعرف شيئًا.

المحامية: ترجمت قصائد لشعراء كوبيين.

بر ودسكي: نعم

المحامية: ترجمت مجموعة قصائد إسبانية ملحمية.

برودسكي: نعم

المحامية: كنت في علاقة مع قسم الترجمة في اتحاد الكتاب؟

برودسكي: نعم

المحامية: أطلب من المحكمة أن تضيف إلى الملف تأييد مكتب المترجمين، قائمة القصائد المنشورة، نسخة من العقود «تقوم المحامية بإحصائها»، والتلغراف التالي: «الرجاء الإسراع بتوقيع العقد» وأطالب بأن يجري المواطن برودسكي فحصًا طبيًا، لتقرير حالته الصحية والإقرار بأن حالته الصحية لا تسمح له بالقيام بعمل منتظم وهي جهة أخرى، بأن يطلق سراح المواطن برودسكي بدون تأجيل وأعتبر بأنه لم يقترف أية جنحة ولا يستند اعتقاله إلى أي أساس قانوني، وأنه يمتلك عنوانًا ثابتًا ويمكن حضوره للمحكمة بإعلام قضائي.

(ينسحب أعضاء المحكمة للمداولة، وبعدها يأخذ القاضي مكانه ويقرأ القرار: «يجب إخضاع برودسكي إلى الفحص الطبي النفسي الذي يجب أن يقرر فيما لو كان يعاني من مرض نفسي أم لا، وفيما لو يتعارض هذا المرض مع إرساله إلى الأشغال الشاقة في المناطق البعيدة. وبناء على ما نجم من ملفه الصحي بأن برودسكي يرفض المستشفى، فيمكن للمليشيا / الفرقة 18 أن تسوقه إلى الخبير النفسي»

القاضي: هل لديك أسئلة؟

برودسكي: أريد أن تزودوني بالأوراق والأقلام في خلية سجني.

القاضي: وجه طلبك إلى رئيس المليشيا.

برودسكي: سبق وأن طلبت منهم ولكنهم رفضوا ذلك، إنني أطالب بالأوراق والقلم.

القاضي: (غير نبرته قليلًا) حسنا سأحاول الطلب بنفسي.

برودسكي: شكرًا

(وعندما انسحب الجمهور من صالة المحكمة، لاحظنا جمهرة من الناس، وخصوصًا الشباب الذين ينتشرون في الممرات والسلالم).

القاضي: لم أفكر بأن يشهد المكان هذا الاكتظاظ من البشر

صرخ واحد من الجمهور: لا يحاكم شاعر كل يوم.

القاضي: شاعر أو غير شاعر... بالنسبة لنا لا يغير شيئًا.

(وطبقًا لشهادة محامية الدفاع، فقد أخلى القاضي سافيليفا سراح برودسكي ليذهب بنفسه إلى الخبير النفسي في اليوم التالي في المصح العقلي، لكن سافيليا أبقى على اعتقاله وأمر بأخذه إلى المستشفى بمرافقة الحرس).

المرافعة الثانية: قضية برودسكي

فونتانكا رقم 13 صالة النادي والبنائين

21 آذار / مارس / 1964

تتلخص استنتاجات الخبير النفسي كالتالي: يعترف بوجود ملامح وصفات المرض النفسي، ويعتبر بأن «الموضوع» جدير بأن يعلن وبالنتيجة فهو قادر على أن يخضع للإجراءات الإدارية. وثمة لوحة

معلقة كُتب عليها» محاكمة المتطفل الاجتماعي برودسكي»، وقد اكتظت صالة النادي والبنائين بالجمهور.

(نهوض، محكمة)

القاضي سافيليفا يطلب من برودسكي إذا ما كان لديه طلب التماس وإعادة نظر يقدمه إلى المحكمة، ويبدو أنه لم يطلع على تفاصيل ملفه لا في الظهور الأول ولا في الظهور الثاني أمام القاضي، ثم يأمر القاضي برفع الجلسة لكي يطلع برودسكي على الملف، وعندما يؤتى بالشاعر يعلن بأن القصائد المثبتة في الصفحات 141، 142، 100، و24 (يقوم بإحصائها)، لا تعود إليه، ويطالب أيضًا بعدم إضافة مذكراته الحميمة التي كتبها عام 1960، في عمر السادسة عشرة إلى الملف، وتتابع المحامية الطلب ذاته.

القاضي: بخصوص ما يسمى بالقصائد يمكن أن ننظر فيها أما ما يخص المذكرات الحميمة، فليس هناك أي داع لسحبها من الملف المواطن برودسكي، منذ عام 1960، تقلبت في ثلاث عشرة مهنة، اشتغلت عامًا واحدًا في المصنع، وبعدها توقفت عن العمل لمدة ستة أشهر، وفي الصيف التالي، اشتركت في حملة جيولوجية، ومن بعدها توقفت عن العمل لمدة أربعة أشهر، (ويقوم بإحصاء أماكن العمل والأوقات التي توقف فيها عن العمل) اشرح للمحكمة، في فترة العطالة عن العمل، لماذا عشت متطفلًا.؟

برودسكي: لقد عملت بين فترات التوقف عن العمل، وكنت منشغلاً بما كنت منشغلاً به دائمًا: أكتب القصائد.

القاضي: إذن أنت تكتب بنفسك ما تطلق عليه القصائد؟ ما هي الفائدة من تغييرك المستمر للعمل؟

برودسكي: بدأت العمل في عمر الخامسة عشرة، مهتمًا بكل شيء، ويعود سبب تغييري للأعمال لأنني كنت أرغب في تعلم أشياء أكثر وأتعرف على أكبر عدد ممكن من الناس.

القاضي: وماذا قدمت من فوائد للوطن؟

برودسكي: كتبت القصائد، هذا هو عملي، إنني مقتنع وأعتقد أن ما أكتبه لا يفيد الناس في الوقت الحاضر بل سيفيد الأجيال القادمة.

صوت من الجمهور: ها!! أي تواضع؟

صوت آخر: هذا أمر طبيعي، فالشاعر يفكر هكذا

القاضي: وهكذا أنت تعتبر بأن ما تسميه القصائد مفيد للناس؟

برودسكي: ولكن لماذا تقول دائمًا ما تسمى بالقصائد؟

القاضي: إننا نطلق عليها ما تسمى بالقصائد لأننا لا نستطيع أن نعتبرها شيئًا آخر.

سوروكين (النائب العام): قلت بأنك كنت متلهفًا لمعرفة كل شيء، لماذا لم ترغب بتأدية خدمتك العسكرية؟

برودسكي: لا أجيب على مثل هذه الأسئلة.

القاضي: أجب

برودسكي: كنت معفيًا من الخدمة العسكرية، وليس «الرغبتي» دخل

في ذلك... وببساطة قاموا بتسريحي، وتم إعفائي من الخدمة مرتين، الأولى بسبب مرض أبي والثانية بسبب مرضي أيضًا.

سوروكين: هل من الممكن أن تعيش بما تجنيه؟

برودسكي: هذا ممكن، في السجن كانوا يطلبون مني كل يوم التوقيع على اعتراف بأنني أكلف الإدارة أربعين «كوبيك»، في الوقت الذي كنت أربح فيه أكثر من أربعين «كوبيك» في اليوم.

سوروكين: ولكن كان من المفترض أن تشتري الملابس والأحذية...

برودسكي: لدي بذلة واحدة، ولو أنها قديمة فهي كافية لي.

المحامية: هل يقيّم الاختصاصيون قصائدك؟

برودسكي: نعم جوكوفسكي ومارشاك أثنيا على ترجماتي... وأكثر مما أستحق.

المحامية: هل كانت لديك علاقة بقسم الترجمة في «اتحاد الكتاب»؟

برودسكي: نعم، شاركت في مجلة «لأول مرة باللغة الروسية» وقرأت ترجماتي من البولونية.

القاضي: ينبغي أن توجهي إليه ما قام به من أعمال مفيدة وأنت تطرحين عليه أسئلة تخص قراراته لترجماته.

المحامية: ترجماته تمثل بالضبط عملاً مفيدًا.

القاضي: برودسكي، من الأفضل أن تشرح لنا شيئًا كيف تركت العمل الأول وانتقلت إلى عمل ثان.

بروودسكي: كنت أعمل في كتابة القصائد.

القاضي: وهل يمنعك ذلك من العمل حقًا؟

برودسكي: كما قلت كنت أعمل في كتابة القصائد.

القاضي: هناك أناس يعملون في المصانع ويكتبون القصائد، ما الذي يمنعك أن تفعل مثلهم؟

برودسكي: الناس لا يتشابهون حتى في ألوان عيونهم أو تعابير وجوههم

القاضي: لست أنت من اكتشف ذلك، كل الناس تعرف ذلك، من الأفضل لك أن تشرح لنا قيمة مشاركتك في مسيرتنا التقدمية نحو الشيوعية.

برودسكي: لا نبني الشيوعية من خلال استخدام الآلات الميكانيكية وجرارات الأرض فقط... بل هو العمل الفكري الذي...

القاضي: كفَّ عن استخدام العبارات الكبيرة، قل لنا على أية قاعدة تبني مستقبلك المهني؟

برودسكي: فكرت بكتابة القصائد والقيام بالترجمة، وإذا ما كان هذا يناقض قانونًا من القوانين، وهو أمر مسموح به، حتى لو أنخرط في مهنة ما لكني أواصل كتابة القصائد بشتى الظروف.

تيالجي: (محلف) عندنا كل الناس يعملون، كيف تمكنت من العيش طوال هذه المدة دون أن تعمل؟

برودسكي: أنت لا تعتبر عملي مهنة بين المهن كتابة القصائد بالنسبة لي مهنة.

القاضي: ألم تتلق درسًا مما نشر حولك؟

برودسكي: مقالة (ليرنير) مليئة بالأكاذيب... وهذا هو الدرس الوحيد الذي تلقيته.

القاضي: ألم توح لك بشيء آخر؟

برودسكي: كلا، لا أعتبر نفسي متطفلاً اجتماعيًا.

المحامية: أنت تعتبر بأن مقالة «المتطفل الاجتماعي في هامش الأدب» التي نشرت في صحيفة (لينينغراد المساء) غير صحيحة... في أي جانب غير صحيحة؟

برودسكي: الشيء الوحيد الصحيح في المقالة هو اسمي واسم عائلتي، حتى ذكر عمري غير صحيح... وكذلك الأشعار المذكورة لا تنتمي إلى شعري، كما تلصق بي أصدقاء لا أعرفهم أو سمعت بالكاد عنهم، كيف أتمكن إذن من اعتبار هذه المقالة صحيحة وأتلقى فيها الدروس؟

المحامية: أنت تعتبر بأن عملك مفيد، هل يمكن أن يؤكد ذلك شهود العيان الذين أقوم باستدعائهم؟

القاضي: (بشكل ساخر يتكلم مع المحامية) وهل تم استدعاؤهم لهذا السبب فقط؟

سوروكين: (النائب العام يتكلم مع برودسكي) كيف تتمكن بدون عون خارجي، أن تقوم بالترجمة انطلاقًا من اللغة الصربية؟

برودسكي: هذه المسألة تثبت جهلك، يمكن أن نستدرك كلمة إثر كلمة في العقد، إنني أتقن البولونية، وأقل منها اللغة الصربية، وهي لغات من عائلة واحدة... ويكفيني أن أترجم كلمة كلمة.

القاضي: الشاهد (غرودينيا)

غرودينيا: إنني أهتم بالشعراء المبتدئين منذ أحد عشر عامًا، وكنت عضوًا في اللجنة المسؤولة عن الكتاب الشباب طيلة سبعة أعوام وأشرف الآن، في قصر الرواد، على طلبة الصفوف المتقدمة، ممن يتعلمون كتابة الشعر، وكذلك أشرف على حلقة الكتاب الشباب في مصنع (سفيتلانا)، وبناء على طلب بحق الناشرين، كونت وفحصت أربعة مجاميع شعرية تمثل أسماء أكثر من مائتي شاعر شاب، وبشكل عملي، فقد تعرفت على جميع أعمال شعراء المدينة الشباب تقريبًا. وتعرفت على برودسكي باعتباره شاعرًا شابًا، من خلال نصوص تعود إلى عام 1960، لم تكن بعد قصائد منجزة بل كانت مليئة بالصور والاكتشافات الضاربة. لم أدرجها بين مجاميعي لكني أعتبر مؤلفها موهوبًا وحتى عام 1962، لم ألتقِ ببرودسكي شخصيًا، وبعد نشر صحيفة (لينينغراد المساء) المقالة المعنونة «المتطفل الاجتماعي في هامش الأدب»، قمت باستدعائه في مكتبي لأن الشباب ألحوا علي بالتدخل لصالح هذا الرجل الذي افتروا عليه. ووجهت له سؤالاً: «ماذا تفعل الآن؟» فأجابني بأنه يدرس اللغات ويعمل على الترجمات الأدبية منذ عام ونصف، وطلبت منه أن يترك لي مخطوطاته من أجل التعرف على شعره. وباعتباري شاعرًا محترفًا وناقدًا أدبيًا، أؤكد بأن هذه الترجمات تندرج في مصافّ الترجمات المحترفة، برودسكي يتمتع بموهبة نادرة في ترجمة الشعر، فقد أعطاني 278 بيتًا، قرأت منها 18 بيتًا أخر نشرت في دور موسكو، ومن خلال تجربتي في معرفة هذا النمط من الترجمة، أعرف بأن عملاً بهذه الغزارة يتطلب إنجازه عامًا

ونصف العام من الجهود المكثفة، على الأقل، دون حساب الوقت المبذول في استشارة الاختصاصيين ومراجعة دور النشر، كل هذه الخطوات، كما نعلم، لا تندرج في الحساب، ومن خلال اعتمادي على أدنى الأجور المدفوعة في دور النشر، قد يحصل برودسكي على 20 روبلًا جديدًا على الترجمات التي رأيتها بأم عيني. يبقى أن نعرف من سينشر كامل العمل الذي أنجزه، كما أطلعني برودسكي على عقود موقعة مع مؤسسة الراديو والتلفزيون، وهو لم يستلم بعد أجوره عن أعمال أنجزها، وبفضل نقاشنا معه ومع معارفه، أعرف بأن برودسكي يعيش بشكل متواضع للغاية، لا يشتري بالملايين ولا ينغمس باللهو، بل يمضي معظم وقته على طاولة الكتابة، والأموال التي يجنيها يمنحها لأهله.

المحامية: من أجل القيام بهذا النوع من الترجمة هل من الضروري معرفة كل أعمال الكاتب؟

غرودينيا: نعم، للحصول على ترجمة بنفس خصائص ترجمة برودسكي، ينبغي معرفة عمل الكاتب والتطابق مع صوته.

المحامية: هل إن الترجمات المعمولة انطلاقًا من كلمة كلمة متدنية الأجور؟

غرودينيا: نعم، بالنسبة للترجمة التي أقوم فيها من اللغة الهنغارية بهذه الطريقة أتقاضى على السطر الواحد روبلاً واحدًا (قديمًا).

المحامية: هل من المتعارف عليه الترجمة انطلاقًا من كلمة كلمة؟

غرودينيا: نعم، كل الناس تعرف ذلك، غوتوفيتشن أحد أهم المترجمين في لينيغراد، يترجم من اللغة الصينية القديمة بهذه الطريقة

ليبيديفا: (محلف) هل يمكن أن يتعلم المرء لغة أجنبية؟

غروردينيا: تعلمت لغتين لوحدي بالإضافة إلى اللغة التي درستها في الجامعة.

المحامية: لعدم معرفة برودسكي اللغة الصربية، هل بإمكانه، في هذه الظروف، أن يقدم ترجمة بمستوى جيد؟

غرودينيا: نعم بالتأكيد.

المحامية: ألا تعتبر ذلك ذميمًا أن ننتفع بعمل الآخرين؟

غرودينيا: وليحفظني الله.

ليبيديفا: (محلف) هنا كتاب على سبيل المثال، نجد فيه قصيدتين صغيرتين لبرودسكي.

غرودينيا: أود أن أقدم بعض الإيضاحات التي تخص خصوصية العمل الأدبي... فالحقيقة هي...

القاضي: كلا، لا فائدة من ذلك، بماذا تفكر أنت ببرودسكي؟

غرودينيا: باعتباري شاعرًا، أعتبره يتمتع بموهبة كبيرة، ويتجاوز معظم الذين يعتبرون أنفسهم مترجمين محترمين.

القاضي: ولماذا يعمل وحيدًا؟ ولماذا لا ينتمي إلى أي رابطة أدبية؟

غرودينيا: في عام 1958، طلب الانتماء إلى مجموعتي ورفضت ذلك لأني سمعت عنه بأنه شاب هستيري. إنني مسؤول شخصيًا عن دفعه إلى ذلك، كان خطأ مني أندم عليه كثيرًا، واليوم أقبله بكل سرور، وأنا مستعد للعمل معه إذا رغب هو بذلك.

تياغلي: (محلف) هل تقرر برؤية العين بأنه يشتغل على قصائده دون أي عون خارجي؟

غرودينيا: لم أر برودسكي منهمكًا بالكتابة على طاولة الكتابة، لكني كذلك لم أر شولوخوف يكتب على طاولته، هذا لا يعني شيئًا...

الحاكم: من غير اللائق أن تقارن شولوخوف ببرودسكي، أنت لا تشرح إذن للشباب بأن الدولة تطالبهم بالدراسة، بينما لم يتابع برودسكي دراسته في المدرسة سوى سبعة أعوام.

غرودينيا: معرفته واسعة، اقتنعت بذلك أثناء قراءتي لترجماته

سوروكين: هل قرأت قصائده البورنوغرافية ـ الخلاعية ـ المفجعة؟

غرودينيا: لا، أبدًا.

المحامية: أريد أن أطلب شيئًا من الشاهد، نتائج برودسكي في عام 1962 هي كالتالي: قصائد ظهرت في (فجر على كوبا)، وترجمات أشعار غالشينسكي (في الحقيقة إنها لم تطبع بعد)، وقصائد ظهرت في (شعراء يوغسلاف)، و«أناشيد غوتشو»، ومنشورات أخرى في (نار المعسكر)، هل يمكن القول أن هذا عمل جاد؟

غوردينيا: نعم، بلا أدنى شك، هذا يمثل عامًا كاملاً من العمل المليء، وقد لا يحصل على أتعابه من الأجور فورًا ولكن في بعض الأعوام، من الخطأ تقويم نتائج مؤلف شاب بما يتقاضاه من أجور في فترة معينة، وقد يشعر المؤلف الشاب بالفشل وعمله قد يتطلب بالضرورة جمهورًا جديدًا في فترة طويلة. ثمة نكتة متداولة بهذا الصدد: الفرق بين المتطفل والشاعر الشاب، أن المتطفل لا يعمل

القاضي: إننا لا نحبذ هذه التوضيحات، في بلدنا كل إنسان يستلم أجوره حسب عمله وبالنتيجة فإنه من المستحيل أن يكون قد بذل جهدًا كبيرًا في العمل واستلم أجورًا ضئيلة. في بلدنا، حيث نخصص مكانة كبيرة بهذه الدرجة للشعراء الشباب، هل تدعي بأنهم يموتون من الجوع؟ لماذا تقول بأن الشعراء الشباب لا يأكلون؟

غورديتيا: لم أقل ذلك، فقد نبهت إلى أنها مجرد نكتة ومزحة تحتوي على الكثير من الحقيقة، فالشعراء الشباب يتقاضون أجورهم بطريقة غير منتظمة.

القاضي: حسنًا... تلك مسؤولياتهم، ليس من اختصاصنا أن نحل هذه المسألة، حسنًا أوضحت بأن ما قلته مجرد مزحة، نقبل هذه التوضيحات (يتم مناداة شاهد جديد هو إيفيم شمريغور يفتش إيتكند)

القاضي: أعطنا جواز سفرك لأن الطريقة التي تلفظ بها اسم عائلتك يبدو غير واضح، (يأخذ جواز السفر)، (إيتكند... إيفيم شيفتش) نحن نستمع إليك إيتكند (عضو اتحاد الكتاب وأستاذ في معهد هيرزن)، مادمتم أوضحتم عملي الأدبي والاجتماعي، وبعلاقتي مع إعداد المترجمين الشباب، يحدث لي عادة أن أقرأ أو أستمع إلى ترجمات المؤلفين الشباب. منذ عام تقريبًا، توفرت لي الفرصة بالتعرف على بعض أعمال جوزيف برودسكي، وفي ذلك ترجمات للشاعر البولوني البارز غالشينسكي، الذي لم تترجم له سوى أعمال بسيطة حتى الوقت الحاضر، إن لمعان الصياغات الشعرية، والموسيقية، والقوة الكامنة فيها، والملامح العاطفية لهذه القصائد أثرت بي تأثيرًا عميقًا. وأدهشتني أيضًا

حقيقة أن برودسكي تعلم البولونية لوحده، دون عون خارجي، وأنه يلقي قصائد غالشينسكي باللغة البولونية بالانفعال ذاته الذي يلقيها بالترجمة الروسية، إنني أتعامل مع موهبة خارجة عن المألوف، وبذات الأهمية، ومع كائن يتمتع بقابلية عمل استثنائية، والترجمات الأخرى التي قرأتها في مناسبات لاحقة لم تفعل سوى دعم هذا الإحساس، وكذلك قصائد الشاعر الكوبي فيرناندز، على سبيل المثال، المنشورة في (فجر على كوبا)، أو قراءة الشعراء اليوغسلاف المعاصرين المنشورة في مجموعة (غوسليتزادات). وقد ناقشت برودسكي مرات عديدة وأبهرتني معرفته في ميدان الأدب الأمريكي والإنكليزي والبولوني. إن ترجمة الشعر عمل صعب للغاية يتطلب ممارسة ومعرفة وموهبة، فرجل الأدب الذي يستعد لهذا الطريق ينبغي أن ينتظر كثيرًا من المرارة، وما يخص الحصول على الأموال من الترجمة فهو أمر بعيد، يمكننا أن نترجم الشعر طوال سنوات طويلة دون أن نستلم روبلاً واحدًا، لا نستطيع أن نقوم بذلك بدون حب مليء بالتفاني من أجل الشعر، ومن أجل هذا العمل ذاته، إن دراسة اللغات، والتاريخ، والثقافات الشعبية لا يمكن أن تتم بيوم واحد، ومن خلال حكمي على ما أعرفه من أعماله، تيقنت بأن مستقبلاً باهرًا ينتظر الشاعر والمترجم برودسكي، وليس الوحيد الذي يفكر بذلك، ومكتب أحد أقسام الترجمة علم بأن إحدى دور النشر فسخت العقد مع برودسكي، واتخذت قرارها بالإجماع بالتوسط لدى مدير هذه الدار لإقناعها بالتراجع عن قرارها، ولدي معلومات أكيدة بأن شخصيات مهمة تدعم هذه الفكرة، ولها كلمة في ميدان الترجمة الشعرية، مارشاك وتشوكوفسكي، اللذان...

القاضي: تكلم باسمك فقط.

إيتكند: ينبغي إعطاء برودسكي إمكانية العمل كشاعر ومترجم... فبالبعد عن مدينة كبيرة، وبدون الكتب الضرورية، وبدون الحلقات الأدبية، من الصعب العمل بل من المستحيل. لدي القناعة الكبيرة بأن مستقبلاً كبيرًا ينتظره في ميدانه. وينبغي أن أقول بأني فوجئت باللوحة المعلقة على المدخل (محاكمة المتطفل الاجتماعي برودسكي)

القاضي: إنها ليست المرة الأولى التي ترى فيها هذه اللوحة.

إيتكند: نعم، ولكني لم أكن أتصور أن المحكمة تأخذ بذلك، وبطريقتها في نظم الشعر، لو أنها لم تأخذ عمله مأخذ الجد، لكان بإمكانها أن تترجم مئات من قصائده بسهولة، وكونه يربح قليلاً من الأموال لا يعني بأنه ينفر من العمل.

القاضي: ولماذا لا ينتمي إلى أي جمعية؟

إيتكند: إنه يتابع دروسنا في الترجمة...

القاضي: آه دروس!

إيتكند: إنه يتابع هذه الدروس بدون سبب.

القاضي: وإذا يتابع الدروس بدون سبب؟ (يتصاعد الضحك في الصالة) سؤالي هو التالي: لماذا لم يكن عضوًا في أي رابطة؟

إيتكند: نحن لسنا رابطة بكل معنى الكلمة، وبالنتيجة لا يمكنني أن أقول بأنه «عضو» لدينا لكنه يأتي إلينا باستمرار ويقرأ علينا ترجماته.

القاضي: وهل واجهت شخصيًا صعوبات في حياتك المهنية؟

إيتكند: (مندهشًا) كلا، يبقى أنني لم أذهب إلى المعهد منذ يومين وربما قد حدث شيء ما منذ ذلك الحين؟ (ويبدو أنه لم يفهم أحد هذا السؤال لا من الجمهور ولا الشاهد).

القاضي: عندما تتحدث عن معرفتك ببرودسكي، لماذا تركز على الأدب الأجنبي؟ لماذا لا تتطرق إلى الحديث عن أدبنا الوطني؟

إيتكند: إنني أتوجه بالحديث إلى المترجم، وبالنتيجة فإنني أهتم بمعارفه في ميدان الأدب الأمريكي والإنكليزي والبولوني إنها آداب عظيمة ومتنوعة، وهي ليست سطحية.

سميروف: (شاهد اتهام ومدير حلقة عسكرية) إنني لا أعرف برودسكي شخصيًا، ولكني أصر على القول بأنه لو كان جميع المواطنين ينتجون مثله لما كنا قادرين على بناء الشيوعية، فالعقل سلاح خطير لمن يستخدمه، كل الناس يدعون بأن برودسكي ذكي، وعبقري تقريبًا، ولكن لا أحد يقول لنا أي رجل هو. ولد في عائلة مثقفة، ولم يتابع المدرسة إلا سبعة أعوام. وليعط الأشخاص الحاضرون آراءهم. هل يدرون حقًا بأن ابنهم يتابع المدرسة لسبعة أعوام فقط؟ وفي حالة دعم العائلة فإنه لم يؤد خدمته العسكرية، وأي عون يقدمه لهم؟ مترجم ذو موهبة تقولون لنا. ولماذا لم يتحدث لنا أحد عن (القصيدة) المحامي في رأسه؟ وأشعاره المعادية للسوفييت؟

برودسكي: هذا غير صحيح.

سميرنوف: قد تحتاج لوضع الأفكار في مكانها الصحيح... إنني أشكك بورقة تأييد المصح العقلي، وما يخص مرض الأعصاب

أصدقاؤه اللامعون بدأوا يدقون الأجراس من كل مكان، آه أنقذوا هذا الشاب التعيس، إنه بحاجة للعلاج في الأشغال الشاقة حيث لا يستطيع أحد من أصدقائه اللامعين أن ينقذه من هناك. إنني لا أعرفه شخصيًا لا أعرف عنه شيئًا سوى ما قرأته عنه في الصحافة وإثباتاته. إنني أرفع الشكوك حول موضوع الشهادة الطبية التي أعاقته من الخدمة العسكرية، أنا لست عضوًا في الهيئة الطبية لكنني أرفع الشكوك.

برودسكي: عندما أطلق سراحي من الخدمة العسكرية، بصفتي المعيل الوحيد لعائلتي، كان أبي مريضًا آنذاك، وبدأت العمل للحصول على لقمة العيش، وبعدها أنا الذي وقعت طريح الفراش، ولكن من أين تأتي بهذه المعلومات وتسمح لنفسك بالحديث عني؟

سميرنوف: أخذت هذه المعلومات من مذكراتك الحميمة.

برودسكي: وبأي حق؟

القاضي: أتأسف لهذا السؤال.

سميرنوف: قرأت قصائده.

المحامية: يبدو أنهم أضافوا إلى الملف قصائد لا تعود إلى برودسكي ومن أين تعرف بأن ما قرأته ينتمي إلى شعره الذي لم ينشر أبدًا؟

سميرنوف: أعرف... وهذا كل ما في الأمر.

القاضي: الشاهد لوغونوت.

لوغونوف: (نائب المدير الإداري للمنسك) إنني لا أعرف برودسكي شخصيًا، قابلته للمرة الأولى هنا، في المحكمة، أن يعيش المرء مثلما

يعيش برودسكي هو أمر مستحيل، إنني أرثي لحال الوالدين بابن مثل هذا، لقد عملت مع الكتّاب وعاشرت الكثير منهم، لا أستطيع أن أمنع نفسي من مقارنته بـ (أولغا شيتنكي)... التي كانت عضوة في طاقم يقوم بجولات إعلانية، وهي تحمل شهادة من جامعة لينينغراد وجامعة صوفيا، وأكثر من ذلك كانت تعمل في المناجم، وإذا ما أردت أن أدلي بشهادتي فأقول إنه ينبغي العمل باجتهاد لجمع كل فوائد الثقافة، وبهذه الطريقة فقط تمكن برودسكي أن يكتب شعرًا حقيقيًا، ينبغي على برودسكي أن يبدأ حياته من الصفر.

المحامية: ينبغي على الشهود أن يقدموا الشواهد وإلا...

القاضي: يمكنك أن تعطينا تقييمك للشهود فيما بعد الشاهد دينيسوف

دينيسوف: (عامل في حفر القنوات) لا أعرف برودسكي شخصيًا، بل أعرفه من خلال ما نشر عنه في الصحافة، إنني أدلي بشهادتي بصفتي مواطنًا وأمثل المجتمع، ما قرأته في الصحف عن أعماله أثارني حقًا، أردت أن أعرف ما هي كتاباته، ذهبت إلى المكتبة ولم أجد أثرًا لكتبه، وطلبت من أصدقاء فيما لو سمعوا به، كلا لم يسمع به أحد وفي مجرى حياتي كلها لم أغير مهنتي سوى مرتين، ولكن برودسكي؟ وهل يتمكن الشهود من إقناع بأنه متعدد الاختصاصات، وفي وقت قصير كهذا لا يمكن تمثل مهنة واحدة، وحسب ما يقال فإن برودسكي يمثل شيئًا ما كشاعر. لماذا إذن لم يكن ينتمي إلى رابطة معينة؟ هل إنه على خلاف مع المادية الديالكتيكية؟ أنجلز يؤكد بأن العمل هو الذي خلق الإنسان، وبرودسكي ليس راضيًا على هذه الصيغة، إنه يرى الأشياء بطريقة مغايرة

ربما يمتلك موهبة كبيرة لكن لماذا لا يجد طريقه في أدبنا لماذا لا يعمل؟ وبنظري باعتباري عاملاً فإن نشاطه غير مقنع.

القاضي: الشاهد نيكولاييف.

نيكولاييف: (متقاعد): لا أعرف برودسكي شخصيًا، ما أريد أن أقوله، وما أعرفه، أنه منذ ثلاثة أعوام يمارس دورًا كارثيًا على معاصريه، إنني أب عائلة، أعرف من خلال التجربة كم يصعب أن يكون لشخص ما ابن مثل هذا عاطل عن العمل، فأكثر من مرة، وجدت عند ابني أشعار برودسكي: قصيدة باثنين وأربعين جزءًا وأشعارًا متفرقة أخرى، سمعت عن برودسكي وما يخص قضية (أومانسكي)، قل لي من هم أصدقاؤك أقل لك من أنت ... كما يقول المثل، إنه معاد صامد للسوفييت، وعند سماع برودسكي تعرفت على ابني هو أيضًا يعتبر نفسه عبقريًا، ومثله يرفض العمل، إن أفرادًا مثل برودسكي وأومانسكي لهم تأثيرات كارثية على معاصريهم، يدهشني والدا برودسكي، وكما يبدو فهما ينشدان المدائح معه على النغمة ذاتها وإذا ما حكمنا على الشكل فإن من المؤكد أن برودسكي قادر على نظم الشعر، إلا أن شعره لم يحدث سوى الضرر، وبرودسكي ليس متطفلاً بسيطًا بل هو متطفل مثابر، ينبغي أن نكون بلا رحمة أو شفقة مع بشري كهذا (تصفيق).

تياغلي: (محلف): أنت تعتبر بأن أشعار برودسكي لها تأثير على ابنك.

نيكولاييف: نعم.

القاضي: تأثير مشؤوم؟

نيكولاييف: نعم.

المحامية: من أين عرفت بأن هذه الأشعار تعود لبرودسكي؟

نيكولاييف: كانت موجودة في ملف كُتب عيه «جوزيف برودسكي».

المحامية: هل يعرف ابنك أومانسكي؟

نيكولاييف: نعم.

المحامية: لماذا تفكر بأنه برودسكي وليس أومانسكي الذي مارس هذا التأثير المشؤوم على ابنك.

نيكولاييف: برودسكي وجماعته، أشعارهم سافلة ومعادية للسوفييت.

برودسكي: اذكر لي أشعارًا معادية للسوفييت، أنت لا تعرف حتى قصيدة واحدة.

القاضي: لا أرخص للشاهد أن يستشهد بالأشعار.

برودسكي: كان بودي أن أعرف أي الأشعار يقصد، ربما لا تعود إلي؟

نيكولاييف: لو كنت أعرف بأنني سأحضر أمام القاضي لصورتها وحملتها معي.

القاضي: الشاهد روماشوفا.

روماشوفا (أستاذ الماركسية اللينينية في مدرسة موكينا): لا أعرف برودسكي شخصيًا لكني على علم بنشاطه، قال بوشكين بأن الموهبة، قبل كل شيء، هي العمل، لكن برودسكي؟ هل يجهد نفسه، هل يعمل لأن تصبح أشعاره مفهومة من قبل الشعب؟ إنني مذهول من أن أرى

زملائي يبهرجون بهذه الحالة. وباعتباري سكرتير الحزب في مدرسة موكينا، أستطيع أن استشهد بأن لهذا الشاعر تأثيرًا سيئًا على الشبيبة.

المحامية: هل سبق وأن قابلت برودسكي؟

روماشوفا: أبدًا، ولكن نشاطه يسمح لي أن أحكم عليه.

القاضي: هل يمكن أن تقدمي بعض البراهين؟

روماشوفا: باعتباري تربوية، أعرف رأي الشباب حول شعر برودسكي.

المحامية: وأنت، هل تعرفين قصائد برودسكي؟

روماشوفا: نعم إنها مريعة أشعر بأنني غير قادرة على إعادتها... إنها مر...يعة.

القاضي: اسم عائلتك غير مألوف أريد أن أرى جواز سفرك إن أمكن.

أدموني: (أستاذ في معهد هيرزن)، عالم ألسني وناقد أدبي ومترجم): عندما علمت بأن برودسكي استدعي للمثول أمام القاضي بتهمة التطفل الاجتماعي، وجدت من واجبي أن أعطي رأيي في المحكمة، منحت نفسي هذا الحق، والفضيلة أنني أعمل منذ ثلاثين عامًا مع الشباب باعتباري أستاذًا في المدارس الكبرى، وأيضًا لأنني أعتني بالترجمات منذ فترة طويلة، لا أعرف برودسكي إلا بشكل غامض، كنا نحيي بعضنا، ولكننا كما يبدو لم نتبادل سوى بعض الأحاديث، ومنذ ما يقرب العام، ربما أكثر بقليل، أتابع باهتمام أعمال المترجم، منها المنشورة والتي قرأها في الأمسيات، أهتم بترجماته لأنها لامعة ومليئة بالموهبة، وأعتمد

القول في ذلك على ترجماته لغالتشينسكي وفيرناندز وآخرين ويمكنني أن أضمن بأنها استغرقت جهدًا جبارًا، وأنها تبرهن على استحواذ المترجم على ثقافة أولئك المؤلفين، وليس هناك من معجزة فإن السيطرة على الثقافة «لا تسقط من السماء» (أي لا تأتي من الفراغ، المترجم) وللحصول عليها ينبغي العمل بمثابرة، ودقة ودأب، وحتى بالاستنجاد بترجمة كلمة كلمة، وإذا ما أراد المترجم أن يظهر ترجمته باقتناع كامل، ينبغي عليه خلق صورة عن اللغة التي يترجم عنها، وأن يكون حساسًا إزاء بنائها ويكون على معرفة بثقافة شعبها إلخ، وعندما علمت، وما كنت أجهله حتى اليوم، بأنه لم يمض سوى سبعة أعوام في المدرسة، أدركت حكم العمل الهائل الذي قام به للسيطرة على هذه الثقافة مبرهنًا على جدارته، يمكننا أن نقول عن عمل الشاعر، المترجم ما قاله مايكوفاسكي عن عمل الشاعر: «استخلاص الكلمة الصحيحة من أفضل أنغامها معانيها الفعلية». إن فضيلة القانون الذي اتبعه برودسكي أنه اتجه ضد الذين يعملون قليلاً، وليس ضد الذين يربحون قليلاً، وبالنتيجة، فمن اللامعقول اتهام برودسكي بالتطفل الاجتماعي. لا يمكن أن نطلق مثل هذه الاتهامات على شخص مثل برودسكي، الذي يعمل بدقة ومثابرة دون أن يعبأ بالمردود المالي، وهو مستعد لأن يضحي بالضروريات من أجل الوصول إلى الكمال وإنجاح العمل الفني.

القاضي: ينبغي إبداء الرأي بأولئك الذين يربحون أموالاً قليلة؟ ماذا قلت بهذا الخصوص؟

أدموني: قلت بأن القرار في جوهره يخص أولئك الذين يعملون قليلاً وليس الذين يربحون قليلاً.

القاضي: ماذا تقصد بهذا؟ هل اطلعت على قرار 4 مايو؟ لا يمكن أن تتحقق الشيوعية إلا بفضل عمل الملايين من الناس.

أدموني: أي عمل مفيد للمجتمع يستحق الاحترام.

تياغلي: (محلف): أين قرأ برودسكي ترجماته وفي أية لغات أجنبية؟

أدموني: (بابتسامته): قرأها باللغة الروسية لأنه يترجم من لغة أجنبية إلى اللغة الروسية.

القاضي: عندما يوجه إليك مواطن بسيط سؤالاً لا تجبه بابتسامة بل أعطه التفسير.

أدموني: وهذا ما أقوم به، أفسر إليه بأن برودسكي يترجم من اللغتين البولونية والصربية إلى الروسية.

القاضي: توجه بكلامك إلى المحكمة وليس إلى الجمهور.

أدموني: أسألك المعذرة، إنها عادة الأستاذ الذي يتوجه إلى الجمهور دائمًا.

القاضي: الشاهد فوايفوردين، هل تعرف برودسكي شخصيًا؟

فيوفودين: (عضو إتحاد الكتاب): كلا لا أعمل في اتحاد الكتاب إلا منذ ستة أشهر، لم أقابله أبدًا، نادرًا ما كان يأتي لحضور الأمسيات باستثناء المخصصة منها للترجمة، والظاهر أنه كان على وعي بما يلاقيه شعره من استقبال، ولهذا السبب لم يكن يحضر الاجتماعات الأخرى. قرأت قصائده الساخرة، أنت تحمر خجلاً أيها الرفيق القاضي، إذا ما عرفت الأمر، لقد تكلم الآخرون عن عبقرية برودسكي هنا، فالعبقرية تقاس بتقدير الشعب، وهذا التقدير صفر وسيبقى، في الأشعار التي

قدمت إلى اتحاد الكتاب، يطور برودسكي ثلاثة موضوعات، الأول هوالانفصال عن العالم، والثاني هو البورنوغرافي، الخلاعي، والثالث غياب الحب للوطن وللشعب، الوطن غريب بالنسبة له انتظروا... تذكرت... إنه يتكلم عن «عامة الروس ببدلاتهم الموحدة»، وهذه الأشعار البشعة، الدنيئة ستبقى عالقة في لاوعيه، إنني متفق بشكل مطلق مع شهادة الرفيق الذي أعلن بأن لبرودسكي تأثيرًا مشؤومًا على ابنه، فهو يفصل الشباب عن العمل، وعن العالم، وعن الحياة، وهكذا يمارس دورًا مضادًا للمجتمع.

القاضي: هل ناقشتم في لجانكم موهبة برودسكي؟

فيوفودين: ظهر اسمه في مباحثات أحد الاجتماعات القصيرة، ولكنه لم يثر جدلاً كبيرًا. وأكرر بأن برودسكي كان يكتب قصائد هجائية ولم يكن يأتي إلى اتحاد الكتاب إلا نادرًا وصديقي الشاعر كولين.

المحامية: التقرير الذي كتبته عن برودسكي... هل وافق عليه جميع أعضاء الهيئة؟

فويفودين: إيتكند له رأي مخالف، لم أطلب موافقته.

المحامية: والأعضاء الآخرون في الهيئة، هل اطلعوا على هذا التقرير؟

فويفودين: كلا... لم يطلعوا عليه جميعهم؟

برودسكي: ولكن كيف وصلت إليكم قصائدي ومذكراتي الشخصية؟

القاضي: إنني متأسف لهذا السؤال، أيها المواطن برودسكي أنت لم تعمل إلا بشكل متقطع... لماذا؟

برودسكي: لقد قلت ذلك: لم أتوقف عن العمل، في البدء كمأجور له راتب، وفيما بعد أكتب القصائد (يقولها بخيبة أمل) لدي عمل واحد فقط هو كتابة القصائد.

القاضي: لم يكن موردك المالي. أنت تقول بأنك استلمت مائتين وخمسين روبلاً هذا العام، ولكن انطلاقًا من المعلومات التي زودتنا بها الميليشيا، أنت لا تحصل إلا على مائتي روبل.

المحامية: في جلسة المحكمة السابقة، توقفنا عند المعلومات التي تفيد بأن الميليشيا قامت بمراجعة حساباته، ولكن ذلك لم ينفذ.

القاضي: لديك عقد يشكل جزءًا من ملفك، قامت دار النشر بإرساله، ولكن هذا العقد لا يعدو أن يكون سوى قطعة ورق لم يوقعها أحد. (الجمهور يقوم بتمرير ورقة إلى القاضي تؤكد على أن العقد موقع من قبل المؤلف، وفيما بعد من قبل مسئولي دار النشر).

القاضي: أطلب من الجمهور ألا يبعث لي بالأوراق.

سوروكين: (النائب العام): شعبنا العظيم يبني الشيوعية، والإنسان السوفيتي يطور في أعماقه صفة بارزة وهي: متعة العمل المفيد اجتماعيًا، وبرودسكي ليس وطنيًا لا من قريب ولا من بعيد، لقد نسي المبدأ الأساسي: من لا يعمل لا يأكل، وقد عاش حياة المتطفلين سنوات طويلة، ترك المدرسة ودخل إلى المصنع في عام 1952، وفي العام ذاته يمنح نفسه العطلة (يقوم النائب العام بإحصاء قائمة الأعمال المتنوعة التي تدينه من جديد بالتكامل وفترات الاستراحة التي تخللتها أعماله وكأن هذه الصالة لم تشهد أبدًا إفادات لشهود الدفاع

التي شرحت بالتفصيل بأن العمل الأدبي هو عمل بحد ذاته شأنه شأن الأعمال الأخرى). وقد راجعنا بأن برودسكي لم يستلم سوى 28 روبلاً لقاء عمل كان من الممكن أن يدر عليه 50 روبلاً.

برودسكي: هذا المبلغ مجرد تقدمة، لم يكن سوى جزء مما ينبغي استلامه فيما بعد.

القاضي: اسكت يا برودسكي.

سوروكين: في المكان الذي عمل فيه برودسكي، يشعر الناس جميعهم بالنقمة والسخط بسبب عدم انضباطه وقلة حماسته للعمل. وقد أثارت مقالته المنشورة في (لينينغراد المساء) ردود أفعال عديدة، وخصوصًا رسائل الشباب، وقد رفضوا واستهجنوا سلوك برودسكي، (يقرأ نماذج من هذه الرسائل)، يعتبر الشباب بأن ليس له مكان في لينينغراد، وينبغي أن ينزل به العقاب الصارم، ولديه غياب كامل للوعي والإحساس بالواجب فكل إنسان يشعر بالسعادة عندما يؤدي خدمته العسكرية. وهو يتملص من هذه الخدمة، وقد بعثه أبوه إلى فحوصات المستوصف، لكن برودسكي عاد بوثيقة، وبسذاجته بأن المكتب وافق على قبوله، حتى قبل أن يتم استدعاؤه، كتب برودسكي إلى صديقه شاكماتوف، «أنتظر موعدًا مع لجنة الدفاع، وطاولتك ستصبح الملجأ الوحيد المضمون لقصائدي الهجائية». فقد كان يشكل جزءًا من مجموعة الأصدقاء التي تستقبل كلمة «العمل» بضحكات شيطانية ويطيعون باحترام زعيمهم (الفوهرر) أومانسكي، وبرودسكي يشاركه الحقد على العمل والأدب السوفييتي، وكله عبارة عن حشو كلمات

وأفكار بورنوغرافية، خلاعية. كان برودسكي يطلق على شاكماتوف كلمة «السيد»، وليس أقل من ذلك، فقد أدين شاكماتوف، وهكذا من أين يخرج برودسكي، من هذا المثقف النتن. ونقول بأن برودسكي موهوب جدًا، ولكن من يقول ذلك؟ شاكماتوف من أمثاله.(ثمة من يصرخ في الصالة، ماذا؟ إن تشوكولسكي ومارشاك هما على شاكلة شاكماتوف؟ وهنا يقوم أعوان المليشيا بإخراج المخلين بالنظام من الصالة)

سوركين: أولئك الذين يدافعون عن برودسكي هم مجموعة من الغشاشين والشطارين، والمتطفلين، والحمير، وعديمي الوجدان، وبرودسكي ليس شاعرًا بل هو يحاول نظم شعر رديء، ونسي أنه في بلدنا ينبغي على الإنسان أن يعمل وينتج المواد: الأدوات والمكائن، والخبز كما الشعر، يجب إجبار برودسكي على العمل، ويجب طرده من «مدينة الهيروس» ـ وبعض مدن الاتحاد السوفييتي مثل موسكو، لينينغراد، أوديس، فولكوغراند... إلخ (أعلنت كمدن هيروسية نتيجة لصراعها الشجاع أثناء الحرب ـ المترجم) ـ إنه متطفل، نذل، عديم الوجدان، فرد يحمل أفكارًا كريمة ومن أفواه المعجبين ببرودسكي تخرج الضفادع الصغيرة قال نيكراسوف: أيها الشاعر، لا شيء يجبرك ولكنك كمواطن، عليك واجب. إننا لا نحاكم شاعرًا بل نحاكم متطفلاً، لماذا ندافع عن إنسان يكره بلادنا؟ ينبغي الاهتمام بأولئك الذين تدخلوا للدفاع عنه لقد كتب برودسكي في مكان ما، في إحدى قصائده: «أحب الوطن الأجنبي» وفي مذكراته نجد العبارة التالية: «أفكر أن أقتحم الحدود الحمراء منذ زمن طويل، وفي رأسي الأصهب تنضج الأفكار المحافظة» ويكتب أيضًا: «إن بلدية ستوكهولم تبعث في نفسي احترامًا

أكثر من قصر كرملين وبراغ» ويصف بالشكل التالي: «الشيخ الشره المؤطر بتاج من الصنوبر». وفي إحدى رسائله يمكن أن نقرأ: «إنني أسخر منك يا موسكو» وهكذا ترون من أي شيء خلق برودسكي وكذلك جميع المدافعين عنه. (وبعد ذلك، يعطي الكلام للشابة التي تتكلم عن لينين بمصطلحات خالية من الاحترام ومن المستحيل أن نفهم العلاقة بين هذه الرسالة وبرودسكي، ليس هو من كتبها ولم توجه الرسالة إلى الشاعر وفجأة يتكلم القاضي إلى ـ الأديبة والصحافية فريدا فيكدوروفا التي قامت بتسجيل هذه المحاكمة التاريخية.)

القاضي: توقفي عن تسجيل الملاحظات.

أنا: أنا صحافية، وعضوة في اتحاد الكتاب أكتب مقالات عن تثقيف الشباب أترخص منك في كتابة الملاحظات.

القاضي: من يعرف أي نوع من الملاحظات تكتبين، توقفي في الحال.

صوت من الجمهور: انظروا إنها بدأت تكتب الملاحظات من جديد. (يواصل بوروكين أسئلته، وتأخذ المحامية الكلام، ولأنهم منعوني من الكتابة في هذه اللحظة، فإنني لا أستطيع أن أعطي سوى الخطوط العامة للمرافعة).

أطروحة الدفاع

اعتمد النائب العام على وثائق لم تدخل ضمن الملف، ولم تقدم أبدًا إلى المحكمة، وعلى موضوعات لم يتم التحقيق بها مع برودسكي، لذا

لم يتمكن من إعطاء أية تفسيرات. ونحن لم نتمكن من مراجعة الأوراق الأصلية بالنسبة لمحاكمة عام 1961 المستقلة، ولم تتوفر لدينا الإمكانية لمراجعة الوثائق التي قدمها النائب العام. أما ما يخص مذكرات برودسكي فيعود تاريخها إلى عام 1960. إنها مذكرات مراهق. والنائب العام يقدم إلى الرأي العام رسائل القراء التي أرسلوها إلى صحيفة (لينينغراد المساء). وكتاب هذه الرسائل لا يعرفون برودسكي ولم يقرأوا أية قصيدة له، وإنهم يعتمدون عليها، ومعظمها مغلوط وخاطئ، قدمت بطريقة متقصدة في هذه الصحيفة. والنائب العام لا يهين برودسكي فقط، ولا ينعته بصفات مثل «الوغد» و«المتطفل» و«عنصر معاد للسوفييت» فقط، بل يهين جميع الشخصيات التي تدخلت في صالح الشاعر، وهي شخصيات محترمة أمثال مارشال وتشوكوفسي. والخلاصة أنه لم يقدم أدلة موضوعية، بل استخدم طرقًا غير شرعية.

ما هو محتوى الاتهام؟

أ) تقرير عن النشاط المهني في عام 1956 إلى 1962. في عام 1956، كان عمر برودسكي ستة عشر عامًا. كان من الممكن أن يواصل دراسته ويبقى معتمدًا في عيشه على والديه حتى عمر الثامنة عشرة. وأن التغيير المستمر في وظائفه يعود إلى اضطرابات نفسية في شخصيته، وإلى الصعوبات التي يعانيها من العثور على مكانته في المجتمع. وانقطاعاته عن العمل في جزئها الكبير تعود إلى الحملات الجيولوجية التي كان يعمل فيها، هي أصلاً أعمال موسمية. وحتى عام 1962، لا شيء يؤكد بأنه كان يتملص من العمل.

(المحامية تعبر عن احترامها لكل أعضاء اللجنة، ولكنها تأسف بأن أي واحد منهم لم تكن لديه الكفاءة في ميدان العمل الأدبي. وعندما يقدم مراهق إلى المحكمة، فمن الضروري والإجباري أن يحضر طبيب في اللجنة إذا كان طبيبًا متفهمًا. لماذا نهمل هذه العادة الحكيمة والمعقولة عندما يتعلق الأمر بالأدب؟.

ب (توقف برودسكي عن ممارسة أي نشاط مهني ابتداء من عام 1962. بينما وقع عقودًا في نوفمبر 1962 وأكتوبر 1963مع دور نشر، وهناك ما يثبت ذلك: تأييد استوديو التلفزيون، وتأييد صحيفة (نار المعسكر) وطبع كتاب ترجمة الشعراء اليوغسلاف كلها تثبت عجلة المبدع ونوعية أعماله. نجد في ملفه تقريرًا سلبيًا وقعه ي. فيوفدين، تحتوي اتهامًا مرفوضًا عن نشاطه المعادي للسوفييت، يذكرنا بأسوأ لحظات عبادة الشخصية. وتبين أن هذا التقرير لم يبحث في اللجنة، ولم يطلع عليه الأعضاء، هذا ما يعكس وجهة النظر الفردية للكاتب فيوفدين. بينما جميع الاختصاصيين الكبار، سادة الترجمة أمثال مارشاك وتشيكوفسكي، والشهود ف. أدموني- ناقد فني مهم، وعالم لساني، ومترجم، ي. إيتكتر مختص بالترجمة الأدبية وعضو قسم الترجمة وعضو هيئة العمل مع الشعراء الشباب- أولئك جميعهم قدروا عاليًا أعمال برودسكي وشهدوا على حجم هذه الأعمال التي نشرت في عام 1962. والخلاصة أن تقرير فيوفدين لا يمكن أن يغير شيئًا من أفكار تلك الشخصيات.

ج) لا يوجد أحد من شهود الاتهام يعرف برودسكي أو قرأ قصائده. ويعتمدون برأيهم وإثباتاتهم على معلومات حصلوا عليها بطرق

غامضة، وعلى وثائق وموضوعات كفيلة. ولم تقدم أية إثباتات حقيقية من قبل الاتهام.

النتائج

1) يجب على المحكمة سحب الأوراق التي تتعلق بالقضية المستقلة لعام 1961. وما يخص برودسكي، فقد اتخذ الحاكم قرارًا بغلق الملف. وإذا ما قام برودسكي، في هذه الفترة أو فترة لاحقة، بعمل مناوئ للسوفييت، فإنه يصبح خاضعًا للقضاء وملاحقة الأجهزة الأمنية. وبالفعل فإن برودسكي يعرف شامكاتوف وأومامسكي وقد تأثر بهما. ومن حسن الحظ فقد أطلق سراحه منذ فترة طويلة. ورغم ذلك فقد طلب النائب العام قراءة الملاحظات المكتوبة عنه في تلك الفترة، لكنها لم تقدم لا في الزمان ولا في المكان الملائمين، إذ أثارت غضب الجمهور ضد برودسكي. وقد أعطى النائب العام انطباعًا بأن برودسكي كان يدعم دائمًا وجهة النظر الخاطئة تمامًا. هناك عدد كبير من الذين لهم صلة مستمرة بجماعة أومانسكي، وبفضل تدخل العقلاء الناضجين، عادوا إلى حياتهم الطبيعية. وهذا ما حصل لبرودسكي. وقد أجهد نفسه بالعمل وأنتج كثيرًا في السنتين الأخيرتين. وفي هذه الفترة بالذات تم إيقافه.

2) وما يخص نوعية الأشعار الحقيقية التي كتبها برودسكي، مازلنا نجهل تحديد شعر برودسكي لأنه أعلن بأن سلسلة من القصائد الغريبة أضيفت إلى ملفه. ومن أجل معرفة حقيقة هذه الأشعار كونها منحطة، تشاؤمية أو إيحائية يجب إخضاعها إلى خبير أدبي مشهود

له. ولا يمكن أن يبت بهذه المسألة لا المحكمة ولا أي جماعات أخرى. وهدفنا هو: التقرير فيما لو كان برودسكي متطفلاً اجتماعيًا حقًا، يعيش من التبرعات، ويخلد إلى حياة الكسل. إن برودسكي، الشاعر - المترجم، كرس نفسه لترجمة شعراء الجمهوريات الصديقة والبلدان الديمقراطية التي تكافح من أجل السلام. إنه لا يعاقر الخمر وليس هو بشره أو لا أخلاقي. ونعيب عليه بأنه لم يربح أموالاً كثيرة، وبالنتيجة فهو لم يعمل كثيرًا. (المحامية قدمت إثباتًا يتعلق بخصوصية عمل الترجمة والطريقة التي نفذ بها. إنها تذكر بالعمل الهائل الذي تتطلبه الترجمة، والضرورة التي تحتمها على المترجم في دراسة اللغات الأجنبية وأعمال الشعراء الذين يترجمهم. وتذكر أيضًا بكل الأعمال التي لم تنشر ولم يستلم عنها الشاعر أية أجور). إن نظام الدفع مقدمًا والأموال المكتوبة في الملف غير صحيحة. وبعد تصريحات برودسكي، إنها أكثر ارتفاعًا مما ذكر. كان لا بد من مراجعة ذلك على أية حال، ليست أموالاً مهمة. من أين كان يعيش برودسكي إذن؟ كان يعيش مع والديه اللذين قدما له الدعم لفترة معينة. ولم تكن له أية موارد من أي مصدر آخر سوى عمله. كان يعيش بفقر من أجل تكريس نفسه للعمل الذي أحبه.

استنتاج

لم تصدر أية إدانة بحق برودسكي فليس هو بمتطفل ولا يمكن اتخاذ الإجراءات القانونية والإدارية بحقه. وقرار 4 فبراير من عام 1961

له دلالات عميقة. إنه سلاح مرسوم لتنظيف المدينة من المتطفلين الحقيقيين والملاحقات غير القانونية لا تستطيع أن تنزع معنى هذا القرار. إن القرار المتخذ بالجلسة المكتملة في المحكمة العليا للاتحاد السوفييتي في 10 مارس 1963يلزم المحكمة أن تتصرف بطريقة نقدية إزاء الوثائق المقدمة، ولا تسمح لنفسها أن تدين من يعمل، ويحترم حقوق المتهم في الإطلاع على محتويات ملفه ويقدم بدوره البراهين التي تثبت براءته. فقد تم إلقاء القبض على برودسكي بدون دافع حقيقي منذ 12 فبراير 1964، وتم رفض كل إمكانية لتقديم البراهين التي تثبت براءته. بينما أدلى الشهود بشهاداتهم أمام الجمهور وأعطوا الأدلة والبراهين الكافية للاستنتاج بأن برودسكي ليس متطفلاً اجتماعيًا.

(تنسحب المحكمة من أجل إجراء المداولات وترفع الجلسة).

آراء انتشرت في الصالة

ـ يجب طرد هؤلاء الكتاب جميعهم من المدينة.

ـ ضقنا ذرعا بالمثقفين.

ـ وثم ماذا؟ هل لا يعمل المثقفون شيئًا؟ إنهم يعملون أيضًا.

....

كتب محتويات جلسات المحكمة

فريدا فيغدوروفا

الفصل الرابع

كواليس المحاكمة

إيفيم إيتكند

كانت في اتحاد الكتّاب والأدباء، لجنة خاصة تشرف على الكتّاب والأدباء الشباب يترأسها دانييل غرانين آنذاك، لذا خالطته بصفتي عضوًا في هذه اللجنة، فقال لي بصورة قاطعة: «نحن لا نتدخل في هذه القضية». حقاً، ليس من واجبنا بالضبط التدخل وتحت أنظارنا قضية قانونية تجاه كاتب شاب؟ من سيدافع عنه إذن؟ لم يقدم دانييل غرانين أي جدل منطقي، بل إنه ببساطة لم ير أي إمكانية للتدخل في هذه القضية الهامة.

وبعد مرور أيام، رفع ليرنير، وهو أحد الموقعين على مقال صحيفة «لينينغراد المساء» تقريرًا إلى سكرتارية اتحاد الكتّاب والأدباء.. بأي حق يتم رفع هذا التقرير؟ وعلمت فيما بعد أنه ذهب إلي الكسندر بروكوفيف، رئيس اتحاد الكتّاب والأدباء آنذاك، ولا أدري أية ورقة جاء بها من الأجهزة، وشاع أنها كانت مزيفة، إلا أنه كان ينحني دون نقاش في حالة الضغط عليه .ولا بد في هذا المقال من تذكر بعض كلمات الكسندر بروكوفيف (1900 ـ 1971)، رئيس حلقة الملاحقين لجوزيف

برودسكي، وكان يشكّل جزءًا من الشعراء الفلاحين في منتصف العشرينات، وهو ذاتي التعلّم، وُلد على ضفاف بحيرة لادوجا في عائلة تتألف من الصيادين، وشارك في الحرب الأهلية، وكوّن له مكانة في الأدب كمنشد لموطنه الأصلي، وعرفت مجموعته «أغنيات لادوجا» القريبة من الأغاني والرقصات الفولكلورية، شهرة واسعة، فقد وُلد من التقاليد الشعبية، وأشعاره لصيقة بالشعب. وعادة ما كان الصبايا والفتيان ينشدون أشعاره برفقة العزف على آلة الأكورديون:

اعزف، اعزف على آلة الأكورديون بهدوء،

وسأجعلك تصعد مثل الأغنية

إذ ظهرت، شبحًا مخيفًا،

تلك التي نطلق عليها ـ فينيت ـ

كان بروكوميف مدّاح الثورة الأقرب، والحرب الأهلية كانت أكثر قربًا إليه و«نحن».. عنوان إحدى قصائده التي تعود إلى عام 1930، وهي تتميز بروح الشعراء البروليتاريين في تلك الفترة.

نحن، الناس دونما خوف ـ هذه الملايين التي هزّت نير العبودية.

في البحر، وعلى الأرض الصربية، نغني مجدنا في كل مكان.

حول الآلاف وآلاف الأماكن يرفرف البيرق المخملي والحريري الأحمر.

عبر الماء والنار نحن مررنا كل واحد منا.

وإذا ظل طيلة حياته عازف آلة الكمان في القرية، وفقد الكسندر بروكوفيف، موسيقية أشعاره وبريقه وملح مفرداته الشعبية، وكياسته كرجل يعيش الحياة، والنديم ومغازل النساء، على مرّ السنين، وفي كلمة واحدة انسلخت عنه موهبته وسحره، ولم يبق منه سوى بلاغة ثورية ووطنية تتميز بالسوقية. ويمكن أن نفهم الحقد الذي يضمره لبرودسكي، حقد رجل ريفي على مثقف المدينة، رجل موهوب لكنه دون ثقافة، فلاح استوحى من الشعراء الميتافيزيقيين الإنجليز، روسي حتى العظم، ويهودي كوسموبوليتي. فهو نقيض للحن الفولكلوري، وبين شيوعي ساذج ومدين للحزب، وبين شاب يشكك بلا أبالية الحزب، لم يكن مبشرًا للسلطة السوفييتية، وحتى لم يكرّس لها بيتًا واحدًا من أشعاره، إنه رجل أدب، مجبر على الاحتفال بروعة الحياة السوفييتية بسبب وضعه الرسمي.

«أصبحت الحياة أفضل، وأكثر سعادة وابتهاجًا» .. كما قال ستالين، حيث أجابه بروكوفيف «لا شيء أكثر قيمة من ستالين على الأرض، ولا شيء أكثر قوة من الحب الذي نكنه له». وبالنسبة لشاعر ينظر إلى الموت كحالة حتمية، يستعجل التلاشي القدري، يمثل بالنسبة للغرب كل العفونة والانحلال والفساد البرجوازي - بل الشيطان ذاته - مستوحيًا من ألشعر الإنجليزي والأمريكي والثقافة الغربية.

وفي الحقيقة فإن الكسندر بروكوفيف لا يكره فقط برودسكي شخصيًا، بل يضع كل الجيل الجديد في الظل والتهميش، هو وأعماله الثورية البروليتارية مثل قصيدة «نحن»، وقصيدة الصيادين الفلاحية مثل «أغنيات لادوجا»، فالميزة الرئيسية لموظف رفيع الطراز مثل بروكوفيف،

يسمح بدخول الأدب لمن يشاء ويرفض من يشاء. ولأنه موظف رفيع المستوى لم يكن بروكوفيف شاعرًا. ولو لم يكن برودسكي قويًا لما أعلن الحرب ضده. وكان ميزان القوى مضحكًا: وبروكوفيف الذي يتمتع بالقوة، وعضو في لجنة الحزب في منطقة لينغراد، والسكرتير المسؤول عن اتحاد الكتّاب والأدباء في لينغراد منذ عام 1955، ومؤلف عشرات القصائد وحائز جائزة ستالين عام 1946 وجائزة لينين 1961 أمام شاعر شاب لم ينشر حتى الآن إلا ثلاث أو أربع قصائد صغيرة «وبعض الأشعار للأطفال في مجلة ـ نار المعسكر» غير معروفة للجميع «باستثناء حلقة صغيرة من الشباب»، ولم يكن ينتمي إلى أي جمعية أو نقابة ولا يوجد من يدافع عنه. لنعد إلى تاريخنا، في 13 ديسمبر 1963 بعد أسبوعين من ظهور المقالة في «لينينغراد المساء» ليرنير ـ أحد كتاب المقال، أكثر حدة من بين الثلاثة، قدّم تقريره حول برودسكي أمام أعضاء السكرتارية، لكن مع الاحتفاظ بمقالة الصحيفة ومعرفة قواعد الحياة السوفييتية، هؤلاء تنبأوا فيما بين السطور وما لم يقل علنًا، وكان واضحًا بالنسبة لهم أن الصحيفة لم تقرر، بلا سبب، نشر مقالة بهذه الدرجة من الأهمية، مستوحاة من جهاز الاستخبارات السوفييتيKGB وليرنير ـ لم يكن قادرًا على أن يقول مباشرة ذلك ويروج عن برودسكي بأنه محاط بمدمني المخدرات والمتكيسين والهيبيين والمتاجرين، ويعاشر السياح الأمريكيين، ويمارس، بلا شك، تجارة تغيير العملات والمخدرات، وإنه كان معاديًا للسوفييت صرح أكثر من مرة في محادثاته (المسموعة) ورسائله «المرصودة» بأنه كذا وكذا..

ولم يكن ذلك سوى ثمرة الخيال المعطوب للكاتب ليرنير الذي

كان يصفي حساباته مع برودسكي. ويجب ملاحظة أن ليرنير شخص نموذجي من طراز خاص: وهو كاتب ينتمي إلى الميليشيا الشعبية، ومغامر، ومحتال، وكان يساوم المتاجرين الصغار ويحصل منهم على الأموال. وكان بلا شك على علاقة بجهاز المخابرات السوفييتية، وظل معهم حتى بعد أن تقاعد رسميًا، لكن بصورة خفيّة، والوثيقة التي قدّمها من المحتمل أن تكون مزورة، وإذا لم يكن جهاز الاستخبارات السوفييتي يقدّر مثل هذا النمط من الأصدقاء فإنه يستخدمهم، بل ويجعلهم يأخذون المبادرات ومن ثم يتخلصون منهم، وهذا ما حصل مع ليرنير، فقد استخدمه جهاز الاستخبارات السوفييتية من أجل إثارة «نقمة المجتمع» ضد «المتطفل» برودسكي، ومن أجل تنظيم محاكمته والحملة الصحفية، وتوجيه جميع الدسائس. وبعد مرور عشرة أعوام، أي في عام 1963 تم توقيف ليرنير ومحاكمته، وبالذات بتهمة الاتجار غير المشروع، وحكم عليه بالسجن ستة أعوام مع الأشغال الشاقة، لكن في عام 1963 كان ليرنير المنتصر، قام بالتعاون مع سكرتارية اتحاد الكتّاب والأدباء آنذاك بتقديم برودسكي إلى المحاكمة، وكانت السكرتارية مؤلفة من الموظفين الجهلة وغير المسؤولين، ومن العجزة المتقاعدين، لكن من الكتّاب والنقّاد والشعراء والمسرحيين أمثال: الكسندر بروكفيف، نيكولاي برون، بيوتر كابيتسا، دانييل غرانين، فقد وقفوا ضد «تنظيمات» الميليشيات الاعتباطية أو من غباء الحزب.

ألقي القبض على برودسكي إذن: «الليل قارص البرد. أتمشى في الشارع عندما أحاط بي ثلاثةُ أشخاص وسألوني عن اسمي، وأنا كأي مغفل، أجبتهم، نعم إنني الشخص المعني، فاقترحوا عليّ الذهاب معهم

إلى مكان ما لأنهم يريدون التحدّث معي، رفضت، ولجأت عند أحد الأصدقاء ضربوني ضربات عديدة، تقدّموا بسيارتهم وقيّدوا يديّ إلى الخلف، وعندما علموا أن برودسكي أُودع في سجن كروا، ونحن حاولنا على الفور التدخل لصالحه لدى بعض الشخصيات ذات المناصب الرفيعة في الوزارات، وفي اتحاد الكتّاب والأدباء وفي المحكمة، لكن بعد فوات الأوان.

هل من الممكن أن تدين محكمة شخصًا دون براهين ملموسة؟

المجادلة المعتادة: إذا ألقينا القبض عليه، لأنه بكل تأكيد يوجد ثمة تهمة موجهة إليه، فقد سمح للكثيرين، خلال سنوات ألا يفعلوا شيئًا في هدوء البال، مع بعض المتعاطفين، الشاعرة ناتاليا غرودينينا ـ لها صفات جموحة ووعي جاد بمسؤولياتها، وحاولت أن تجد منفذًا وتعبئة الكتاب والمحامين والصحفيين، قلة استجابوا لندائها، وبالرغم من «ذوبان الجليد»، وعلى الرغم مما نشره حديثًا سولجنستين، من المقالات المضادة لستالين والنداءات الرهيبة للماضي في الصحافة، ظلت الأنتلجنسيا خائفة، وقد انعدم العمل الجماعي، وتحوَّلت قضية برودسكي إلى القضية الأولى.

في يوم ما ظهر الوضع ميئوسًا منه، كتبت رسالة إلى صديقة قديمة في موسكو، فريدا فيغدوروفا، وشرحت لها بالتفصيل قصة الملاحقات طالبة مؤازرتها وعونها، وقد حصلت على ذلك منها مسبقاً: فريدا فيغدوروف تحني رأسها حيث يقترف ظلم ما، عندما يبدو لها في الإمكان إصلاحه، كانت لها تحالفات وعلاقات قوية، فقد عملت

لسنوات طويلة في مجلة «ليتيرا تورنيا ماغازين» وفي «وكومسمو لسكايا برافدا» و«البرافدا» كاختصاصية في مشكلات التربية، ولا يمكن طلب ذلك منها مرتين: في اليوم الذي علمت فيه وحتى رمقها الأخير، طيلة مدة عام ونصف، كرَّست حياتها لقضية برودسكي.

استطراد: فريدا فيغدوروفا

كتبت الكثير عنها، والآن تقوم بنشرها، وكانت فريدا فيغدوروفا لم تبلغ بعد الخمسين، في شهر أغسطس عام 1965 ماتت بمرض السرطان، وبعد موتها خصصت لها، ليديا تشوكوفسكايا، التي كانت على علاقة حميمة معها، كتابًا بعنوان: «في ذكرى فريدا» حيث نامت المخطوطة دون نشر أكثر من عشرين عامًا، وهو ما لا يثير الدهشة باعتبار أن اسم ليديا تشوكوفسكايا كان على قائمة الاتهام حتى خريف عام 1987، بعد إعادة رد الاعتبار الرسمي لبوريس باسترناك، ريسا أورلوفا، كوبوليفا، وهي زوجة ليف كوبوليفا ـ كرست لها مذكرات مؤرخة بتاريخ 1966 ـ 1968 بمعنى أنها تمتد إلى عشرين عامًا، وما تزال هناك مخطوطات أخرى غير منشورة .

لماذا كتب عنها؟

كانت معلمة متواضعة تعمل في مدرسة، وتعطي الدروس إذ استوحت كتابها الأول: «مدرستي: دفاتر معلمة» 1945، وتسرد فيه اتصالاتها الأولى مع تلامذتها، وكيف بدأت بالتدريج للتعلّم والتثقف، وأصبحت فيما بعد صحفية، ومن بعدها كاتبة قصص، لكنها كانت تقلق على مصائر المحيطين بها أكثر من قلقها على كتبها، عندما تجد شخصًا

يعاني من مشكلة معينة، بدلاً من أن تتحدّث كثيرًا، كانت تقدّم العون، وحدها، إلى أقصى الحدود، لا تحسب، ولا تضع أعباءها على أكتاف الآخرين، بل كانت تقدّم العون للكثيرين، إلى العمال، والفلاحين، مثلما تقدّمه إلى الكتّاب والأدباء المشهورين «وعادة إلى أمثال فارلام شالاموف أو ناجدا ماترلستام اللذين لم ينالا الشهرة فيما بعد».

وكانت تنقذهم من المشكلات الصغيرة، وحياة هذا البلد كانت تتكون من ركام من المشكلات، لكن في الحقيقة فريدا فيغدوروفا كانت تفعل أكثر من ذلك، و«نظريتها عن القضايا الصغيرة» كانت تسبب لها توترًا يفوق قواها، وفي «دفاتر صحفية» الذي لم يطبع، وكذلك «دفاتر برلمانية» أيضًا نجد حوارات ممتعة ومتميزة صنعتها، على سبيل المثال رد فعل ما في موسكو في المؤتمر السابع للحزب 17 ـ 31 أكتوبر من عام 1961) الذي خلع فيه للمرة الثانية، لكن كما يبدو نهائياً: «كانت الجماهير محتشدة في الساحة الحمراء، ومجموعة تتكون من أربعين إلى خمسين شخصًا، لكن لم يكن بينهم سوى اثنين أو ثلاثة يتكلمون فيما يستمع الآخرون».

صرخ واحد من أهالي جورجيا:

ـ إنه يتمتع بالمزايا.

ـ أية مزايا؟ أية مزايا؟

ـ مزايا..

أكد رجل يستند إلى عكازين:

ـ وجهه وملامحه دموية.

قالت امرأة تبدو في هيئتها أنها عاملة تنظيف، وهي تمسح وجهها.

ـ هل أوقف أحدًا؟

سأل الرجل ذو العكازين.

لم يوقف أحدًا.. أعطني مثالاً..

ـ لا أعرف، لكنه أوقف والدي وأمي، ولم يعد أحد منهما.

رد الرجل ذو الأربعين عامًا بوجهه الذي ينم عن الثقافة.

ـ ثم ماذا؟ تدخلت امرأة ذات خدود طافحة وأظفار مصبوغة بالأحمر، لكننا بحاجة إلى أن نصرخ للعالم أجمع؟ ولم يكن بمقدورنا أن نفعل ذلك بصورة سرية، تمامًا كما هو الحال عندنا: مسؤول صالون الحلاقة: بدأ يخاصمنا أمام الزبائن لأننا نستخدم عطر الكولونيا كثيرًا، لماذا أمام الناس جميعهم؟ ألم يكن من الممكن قول ذلك بصورة رزينة في الكتمان؟

ـ بالتأكيد، ليس من شأننا، على أساس أن ذلك كان جيدًا، والآن، هكذا..

ـ لم يسامحنا ماوتسي تونغ.. انتهى كل شيء معه.

أحد الميليشيات يستمع إليهم، يسكت، لا يتدخل، رجل صغير وبالبيرية:

ـ لماذا لا تقول شيئًا؟ لماذا تتحمّل كل ثرثراتهم؟ لماذا لا تهتم؟

رجل الميليشيا لا يحرّك ساكنًا.

احتفظت بإحدى رسائل فريدا فيغدوروفا التي خاطبتني بها في اللحظة

التي دخلت فيها المعركة، إنها مؤرخة في 17 ديسمبر - بعد مرور أربعة أيام من القرار الذي اتخذته سكرتارية اتحاد الكتّاب والأدباء بتقديم برودسكي إلى المحاكمة.

نجد اسم ف. تولستيكوف، أول سكرتير للجنة الحزب الناطقة، بمعنى آخر «عميد لينينغراد» فيما بعد أصبح سفيرًا في الصين»، وكذلك فكتور آردوف، الناقد الساخر، والصديق الحميم للشاعرة آنا أخمتوفا التي طلبت منه الدعم، والكسي سوركوف، شاعر وسكرتير اتحاد الكتّاب والأدباء في الاتحاد السوفييتي، وديفيد دار الذي شارك بنشاط في معركتنا.

«آيدوف وأنا، رأينا شوستاكوفيتش اليوم، كتبت لي فريدا فيغدوروفا، نائب لينينغراد في مجلس السوفييت الأعلى، كان من الطبيعي أن تخاطبني. المقابلة كانت على أحسن ما يرام. قال لنا إنه سيتحدّث إلى فاسيلي سيرغيفيتش تولستيكوف في الجلسة المقبلة. فاسيلي سيرغيفيتش كان على علم بالقضية من قبل، فقد أخبره آردوف بكلمة الأمس. شوستاكوفيتش سيكون في لينينغراد في الـ21، وإذا لم يطرأ أي تغيير في هذا التاريخ، يجب أن تتدبر الأمر من أجل الاتصال به، وتخبره أن الأمور تسير بشكل سيء، لكنني أرغب في أن ما حدث اليوم سيشكل منعطفًا في هذه القضية الرهيبة، وباستثناء ذلك، نحن بعثنا كل الوثائق إلى سوربوف، واليوم اتصل بآنا أخمتوفا ليقول لها إنه سيتحدّث مع مدير الاتحاد، وهذا ليس شيئًا سيئًا أليس كذلك؟ لا أكتب هذه الرسالة هي في الوقت ذاته جواب له، وإذا لا يزعجك ذلك، انقل له ما قلته لك..»

موسكو 17 ديسمبر 1963.

بدأ الصراع كما نراه، وبفعالية كبيرة، فريدا فيغدوروفا تنفق دون حساب، ونجحت في تنظيم صفوف المدافعين عن برودسكي.. وهم ثلاثة من الحائزين جائزة لينين «شوستاكوفيتش، مارشاك، وتشوكوفسكي» وشعراء وموسيقيون وعلماء، بالنسبة لتلك الفترة كانت مبادرة لم يسبق لها مثيل: لم يكن لدينا بعد لا ـ النشر على حساب المؤلف ـ ولا تجربة الكفاح الجماعي، الذي وُلد مع قضية برودسكي.

أقامت فريدا فيغدوروفا الربط بشكل محترم مع فاسيلي سيرغوفيتش لأنها تعرف أن رسالته ستقرأ من قبل أجهزة الرقابة، والحملة المتعاطفة مع برودسكي كانت أساسًا موجهة ضد الـكي. جي. بي، الذي أعطى الضوء الأخضر لعملية التوقيف، بل حتى أخذ زمام المبادرة هذه، من المعلوم أن تولستيكوف لم يفعل شيئًا من أجل مساعدة الشاعر. كان ستالينيًا فظيعًا، كان أبهة يكره المثقفين، لم يكن مرتاحًا على رأس لينينغراد. هذه المدينة التي كان يقودها منذ بضع سنوات، كانت لفترة طويلة قطعة من العلوم والفنون، وعاصمة الانتلجنسيا الروسية، حيث أن شوستاكوفيتش، المعروف في العالم أجمع، يخاطبنا، لم يكن إلا أن يجعل منه مجنونًا من الغضب: حيث المؤلفون الموسيقيون منشغلون في تأليف السيمفونيات ولا يتدخلون في السياسة!

في الوقت الذي كان فيه جوزيف برودسكي وراء القضبان، شوستاكوفيتش سيخاطب توستيكوف وسوركوف وبروكوفيف.

غُمرت لجنة الحزب، الـكي. جي. بي، والمحكمة بالرسائل

والبرقيات من مارشاك، تشيكوفسكي وآخماتوفا وفيغدوروفا وكثيرين غيرهم، وحتى دانييل غرانين فهم خطأه، وأرسل برقية ساخنة إلى النائب العام للاتحاد السوفييتي حيث عبّر فيها عن سخطه وغضبه في مواجهة التصرفات غير الشرعية لسلطات لينينغراد.

في الوقت الذي كان فيه برودسكي في سجن «كروا» وقضيته تتابع في المحكمة حسب خطة ليرنير.

فريدا فيغدوروفا وصلت إلى لينينغراد، قبل وقت قصير من انعقاد المحكمة. كتاب يجتمعون عند الروائي يوري غورمان من أجل النقاش حول إمكانية أو استحالة التحرّك بصدد هذه القضية. يوري غورمان نفسه، وبطباعه المعتدلة والهادئة، ينزع إلى المصالحة، وكونه مواطنًا مخلصًا كانت خارجة عنه، وهذه القضية ظهرت له مضحكة وغريبة الأطوار، اتصل هاتفيًا بالميليشيا، الذين ارتبط معهم بعلاقات جيدة منذ زمن طويل. وبعث برسائل إلى جميع الأطراف، وحاول أن يعقل البيروقراطيين، وهو متفائل طبيعي، فقد اقتنع بأن الخير ينتهي إلى الانتصار في نهاية الأمر، بينما كان برودسكي ينتظر في سجن «كروا»، وكانت الخطوط تسير في طرق متوازية دون أن تلتقي.

المرافعة الأولى

قبل أيام من المحاكمة، ذهبت إلى رئيس المحكمة، بصفتي المسؤول عن قسم الترجمة، وعضوًا في لجنة العمل مع الأدباء الشباب، استقبلني باحترام غير عابئ، حاولت أن أجهد نفسي في الشرح بأن من المستحيل اعتبار برودسكي متطفلاً اجتماعيًا، لأنه كتب وترجم أشعارًا تحت ذريعة

أنه ليس عضوًا في اتحاد الكتّاب والأدباء، استمع إليّ باهتمام، أحنى رأسه بصمت، وأفهمني أن تهمة التطفل الاجتماعي لم تكن سوى تهمة شكلية، لأن في حوزتنا ملفًا آخر ضد برودسكي.

وتحدّث بنغمة غامضة ومغلّفة، وحديثه الغائم والمنصب أوحى إلينا بالاعتقاد أن برودسكي عبارة عم أرهابي، وإن محكمة لينينغراد، أثبتت إنسانيتها، وترغب في إنقاذ المحكوم في عقوبة الإعدام، أو السجن المؤبد، وقررت أن تطبق بحقه مادة أقل خطورة نسبيًا، ولم تستدرك سوى عقوبة أقل قساوة.

ـ نعم، يوجد ملف آخر بحق برودسكي، قال لي القاضي، بنغمة سوداوية ومفهومة.

أي ملف؟ برودسكي لم يتدخل في السياسة أبدًا، إنه شاعر ميتافيزيقي ويهتم بمشكلات الكائن البشري الداخلية فقط، والحياة والموت والأبدية، أي ملف يمكن أن يكون ضد مثله؟

القاضي قلّب أوراقه وأخرج واحدة منها ومدها إليّ، إنها قصيدة هجاء خؤونة بل فاحشة وغير لائقة، كتبت ضد ألكسندر بروكفيف.

فسألته:

ـ هل لديك وثائق أخرى من هذا النوع؟

غضب القاضي:

ـ لا أدري لماذا تتكلم بهذه النغمة الساخرة.

ـ منذ فترة طويلة أعرف قصيدة الهجاء هذه، إنها قصيدة تعود إلى شخص آخر، ولا دخل لبرودسكي فيها.

في الحقيقة كانت قصيدة الهجاء، هذه لميخائيل ذودان، وهو شاعر في خط الدولة بصورة مطلقة، وهو اشتراكي وأحد أعمدة المؤسسة السوفييتية.

ـ لا توجد لدينا المعلومات ذاتها، رد عليّ القاضي بجفاف، وأشار إلى أنه لا يرغب في متابعة هذه المقابلة.

الجلسة حدّدت في يوم 18 فبراير، وفي سيرنا نحو مقر الحكومة الكائن في شارع ـ فوستانيا ـ رأينا جمهورًا حاشدًا، ينتظر أمام البوابة عند وصول المتهم، في اللحظة التي صعدنا فيها درجات المدخل، شاهدنا في ممر مظلم، قذر، برودسكي يعمل تحت إمرة حراسة مشدّدة، ويبدو نحيل البنية الجسدية، عند مروره بالقرب منا، ألقى علينا نظرة، ورسمت شفتاه ابتسامة.

وفي غضون دقائق، سمحوا لنا بدخول الصالة، فريدا فيغدوروف، إسرائيل، ميتير، كاتب، ووالدا المتهم وأنا.

وتدفق الشباب وأثاروا ضجة، فمنعتهم الميليشيا من الدخول تحت ذريعة أن الصالة ضيقة جدًا.

والجلسة انعقدت في ضوضاء وجلسة رهيبتين، كنا نسمع بصورة سيئة، وحاولوا إسكات الجمهور دون جدوى بين حين وآخر.

وكانت فريدا فيغدوروف جالسة في زاوية وبيدها دفتر تدوّن فيه، وعندما بدأت لتوها بالتدوين فقد أثارت غضب القاضي سافيليفا، هي امرأة في الأربعين من عمرها، تبدو مقطبة، ولا تشبه ملامحها قاضية، بل حارسة مبنى ساخطة أيقظها السكارى طيلة الليالي.

وكان أعضاء لجنة المحكمة، على يمينه ويساره، يبدو على وجوههم القلق ولا يفهمون ما يحصل بالضبط. كانوا ينظرون بهلع إلى الباب الذي يتصاعد وراءه صخب مدوٍّ يثيره مجموعة من الشباب.

وكما رأينا، وعلى طلب المحامي، فقد تقرر في المرافعة الأولى أن يبعث برودسكي إلى المستشفى لغرض إجراء الفحص النفسي.

ولكي لا يصاب القارئ بالدهشة بهذا الإجراء الذي طلبه المحامي، لم تكن لدينا في تلك الفترة أية معلومات عن المصحّات العقلية والنفسية الخاصة التي كانت عبارة عن سجون يلقى في غياهبها المنشقون السياسيون. ولم نتعرف على وجودها إلا بعد مرور عام على ذلك عندما أعلن بأن الجنرال والمنظر العسكري غريغورينكو مصاب بالجنون. وغريغورينكو 1907 ـ 1987 بعد أن أمضى فترتين في المصحات العقلية من 1964 ـ 1965 ومن 1969 ـ 1974، اضطر إلى مغادرة روسيا إلى نيويورك مرغمًا. وقد نشر فيما بعد مذكراته. ولكن في عام 1963، أثبتوا أن برودسكي كان مريضًا لأن الدفاع فكر بأنه من خلال ذلك يمكن تفادي «نفيه إلى مناطق نائية».

وقد تم نقله تحت حراسة مشددة إلى المستشفى حيث أمضى فيه ثلاثة أسابيع، تلقى خلالها تعذيبًا قاسيًا. ولكنه لم يفقد صوابه وأثبت بأنه ما زال يحتفظ بكل قواه العقلية. وعشاق شعره أخذوا العبر من هذه الحادثة ومن تفاصيل حياتهلأنهم مدينون له بكتابة قصيدتيه «غوربونوف» و«كورتشاكوف». ومهما كلف الأمر فإن هذه الفترة المثالية والنفسية، بدل أن تغلقه، أوضح الأطباء الخبراء في استنتاجاتهم بأن برودسكي كان صالحًا للعمل ويمكن أن تؤخذ ضده الإجراءات الإدارية.

وردا على سؤآل طرحه مراسل مجلة «نوفيل اوبسرفتير» الفرنسية 18 ـ 24 ديسمبر 1987: ما هي اللحظة الأصعب بالنسبة لك في الاتحاد السوفييتي؟ أجاب برودسكي: «المصح العقلي في سجن لينينغراد بعد تواصل المحاكمة باتهامه بـ«التكاسل». كانوا يزرقونني بإبر مهدئة مريعة. وكانوا يوقظونني في ساعة متأخرة من الليل، ويضعونني في بانيو ماء قارص البرد. وكانوا يلفونني بمنشفة رطبة ويضعونني بجوار المدفئة، فتعمل الحرارة على تجفيف المنشفة حتى يتشقق جلدي».

وعلى أعقاب المرافعة الأولى، كانت الحركة المؤيدة لبرودسكي حددت الخطوة التالية. ومن خلال طلب الفحص عند خبير نفسي، أفضت المحكمة إلى طلب المحامي، في انتظار استنتاجات الخبراء. فإذا كان برودسكي مريضًا، تتوقف الملاحقة إلى هذا الحد.

فقد أعلن بأن برودسكي سليم عقليًا. لذا فإن المحكمة عقدت مرافعة ثانية من أجل إصدار العقوبة.

المرافعة الثانية

عقد الجزء الثاني من المحاكمة بعد أقل من شهر ولكن هذه المرة انعقدت في الصالة الكبيرة لفريق البنائين بـ»فونتوكا». وتقع هذه الصالة في العمارة المجاورة لكبنكيندورف «رئيس الدرك ومدير الفرقة الثالثة للديوان الملكي وحيث المقر الحالي لمحكمة مدينة «الينينغراد» (والمصادفة غريبة حيث تمت محاكمة الشاعر في مكان بمقربة من المكان الذي أعدم فيه بوشكين وليرمونتوف ونيكراسوف...)

دامت المحاكمة الثانية وقتًا طويلاً وكانت بمثابة فيلم مطول. تكونت الجماهير من عمال موسميين جيء بهم خصيصًا بواسطة شاحنات نقل كان العمال يصيحون ويصرخون ويصفقون بضجة للاتهامات التي كانت توجه للشاعر كما كانوا يصرخون ويتلفظون بكلمات بغض وحقد اتجاه محامي برودسكي. كما وجد بين ذلك الجهور بعض ليسوا من الكتاب لن أعلن عن أسمائهم... كان القاضي نفسه أي «سافيلييفا» التي كانت تعمل على إهانة الشاعر واتهامها له بالعيش عالة على المجتمع.

كنا هناك محاطين بهؤلاء العمال المحرضين والمتعصبين الذين كانوا يثورون عقب كل جواب. كان من السهل وصف أي شاعر بالجنون هكذا، أو وصفه بالمتطفل الذي يعيش على الآخرين. من السهل جدًا كذلك إقناع أي عامل مرهق في عمله المتعب كالبناء بعدم جدية شخص يقضي وقته في الكتابة ليكتب أسطرًا لا تعني شيئًا ولا تجدي شيئًا. كان المتهم بالنسبة لهم كسولاً ومتطفلاً ولا جدوى منه في المجتمع. مبدئيًا فإن العمال يحترمون العمل كيف ما كان نوعه بما فعل الكاتب. لكن حين يتردد على أسماعهم نفس العبارات مثلاً: «انظر كيف أنك تشقى وتتعب في الوقت الذي يقضي هو معظم أوقاته في المقاهي يحتسي شراب الكونياك يفكر ويكتب ويتكلم فقط أما أنت فإنك تتعب وتستيقظ باكرًا لتقلك شاحنات إلى عملك أما هو فينام إلى منتصف الزوال...» حين تردد مثل تلك العبارات على مسمع العامل فإنه بالطبع يصحو بداخله كره اتجاه المثقف والكاتب، كره يصل إلى حد ذبح واستئصال اليهود.

أرادت المحكمة طوال جلستها أن تخدع العمال وتقنعهم بمدى

خطيئة الشاعر الذي صورته كأنه كسول ومتهرب ومنحرف وحين «صرح» وكيل المحكمة أن برودسكي كان يستغل عمل غيره» لأنه كان يقوم بترجمة الكلمات بمساعدة القاموس في كتاباته، استنكر الحضور بشدة ما اعتبروه جريمة. كيف يجرؤ هذا الكسول أن يستغل عمل غيره علاوة على بطالته؟ حين جاوب برودسكي باندهاش القاضي على تلك الاتهامات قائلاً إن كتابة الشعر ليست بتضييع للوقت وإنه ليس قصد التسلية ولا اللعب اهتز الحضور بضحكات ساخرة.

حين أقرأ الآن ما سجلته خلال المحاكمة بعد مضي سنوات عليها يتهيأ لي وكأنني أشاهد محاكمة ساخرة. لكن آنذاك لم يكن لدينا رغبة في الضحك إطلاقًا. لم يكن القاضي و السيد «تياغلي» بالممثلين ولم يكونا يقدمان مسرحية هزلية بل كانا يمثلان القانون والسلطة وكانا يقرران مصير إنسان.

يجب الاعتراف بأن القاضي كان في وضعية صعبة. كان قد تلقى أمرًا بأن يلحق ببرودسكي أقصى العقوبات. ليس مهمًا من أصدر الأمر لجنة الحزب أو الـ«كي جي بي «المهم أن القاضي تلقى بالتأكيد مكالمة هاتفية صبيحة اليوم نفسه. وكما نعرف فإن» العدل هو عبارة عن انتصار على الظلم».

أتذكر موقفين في قرار الاتهام، كان على يميني المؤرخ والاقتصادي والدبلوماسي السيد أيفجيويني جنيدين حين بدأ سوروكين يشتم من أتى للدفاع عن برودسكي، حينها صرخ العجوز جينيدين الذي لم يستطع تحمل الموقف: «ماذا؟ تشيكوفسكي ومارشاك؟ على الفور تسلل رجال الدرك إلى المؤرخ وسحبوه من مقعده وأخرجوه من الصالة وقد

عصموا يديه إلى الخلف. حكى جينيدين بعدها أنه تم الزج به في سيارة وألقوا به بعيدًا في الطرف الآخر من المدينة. لكن كان خلفه عشرون سنة من الحبس والأعمال الشاقة... فقد تعود على مثل تلك المعاملة ولم يكترث بها كثيرًا.

على يساري كانت تجلس فريدا فيغدوروفا التي كانت تسجل كتابيًا ما كان يدور في قاعة المحكمة. وفي بغتة حين أنهى وكيل المحكمة مداخلته صرخ القاضي وأمرها بالتوقف عن الكتابة.على إثر هذا الأمر توجه معاونان قضائيان الى فريدا فيغدوروفا وكان من الواضح أنهما كانا يهمان بانتزاع المذكرة من بين يديها، فألقت بها اتجاهي وخبأتها في جيبي الداخلي تم طويت يدي. كان من الواضح على وجهي عزمي على التشبث بالأوراق والمقاومة من أجل ذلك بحيث لم يقتربا مني لأنهما كانا يتفاديان إرباك المحكمة إذ أنهما لم تكن من مصلحتهما إثارة الشغب. تطلبت مهمة الدفاع عن برودسكي شجاعة خارقة إذ لم يكن بالهين أن ترافع لصالح المتهم وسط كل تلك الظروف. وقد برهنت زويا توبوروفا عن تلك الشجاعة حيث أظهرت أن تلك الاتهامات لا أساس لها من الصحة وأن تقرير فوايفيدون كان مزورًا وأن جميع من شهد ضد برودسكي وبدون استثناء كانوا بدون أدنى كفاءة، كما رجال العدل. وأضافت أن التهمة كانت ملفقة وغير صحيحة وأن المتهم لم يكن شخصًا طفيليًا على المجتمع.. وكانت مرافعتها منطقية وجيدة لدرجة أنها أقنعت بعضًا من العمال الأكثر وعيًا بالتأكيد والذين لم يتم تحريضهم كثيرًا. حين خرج القاضي للمداولة، كنا نتوقع أنه لن تكون هناك عقوبة لأن الفضيحة ستكون كبيرة...

لم يفرج عن المتهم لأن الحكم كان قد حدد مسبقًا بذلك ونتساءل لماذا استغرقت المداولة كل هذا الوقت في غرفة المداولة وبمَ كان القضاة منشغلين؟...

كل أطراف القضاء كانوا يجتمعون على نفس الرأي والحكم: تطبيقًا لقرار 4 مارس 1961 تم الحكم على برودسكي بـ5 سنوات منفى وبأشغال شاقة في المناطق البعيدة.

تفرقنا ونحن موجوعون تحت وطأة الظلم والتهكم والسخافة التي سادت في المحاكمة. كنا قد شهدنا محاكمة شكلية: صالة مليئة بالحضور، ملفات كبيرة ومليئة رسم عليها شعار الاتحاد السوفياتي، قاض منتخب شرعيًا، قاضيان اختيرا كذلك بنفس الشرعية من طرف منظمات اجتماعية كانت المحاكمة كما كان يجب أن تمر تم استجواب وتوجيه التهم للمتهم الذي كان له حق الدفاع المتمثل في المحامي. كذلك الشأن في إصدار الحكم الذي «قرر» في غرفة منفردة بعد مداولة طويلة. وأتى الحكم كذلك بطريقة مسرحية لكن قانونية: «باسم الجمهورية الاشتراكية الفيدرالية الروسية....»وأتى التصفيق ليتوج المشهد وسيق المجرم تحت حراسة كبيرة.

كل شيء مرّ حسب البرنامج لكن بسرعة أكبر...

لكن في ما يخص جوهر المحاكمة فيمكن القول إنه كان منعدمًا أو إن وجد فإنه كان بدون أهمية: كان القاضي نفسه لا يدرك عمق القضية والمحلفون كذلك لم تكن لديهم أدنى فكرة عن الأدب والعمل الأدبي أما الشهود فلم تكن لديهم أية شهادة لأنهم بكل بساطة لم يكونوا

يعرفون المتهم برودسكي ولا كتاباته. أما وكيل المحكمة فإنه اعتمد في هجومه واتهاماته على تقارير كاذبة مبررًا اتهاماته بأشعار لم يكتبها المتهم كما استشهد بمخطوطات ورسائل لم نعرف من أين أتى بها. قام القاضي بإلقاء العقوبة كما طلب منه لكن الحكم كان مقررًا من قبل، وبالفعل تمت المحاكمة على ما يرام يعني بالشكل الذي رسم لها ولا داعي للمضمون فهو ليس بالمهم، فالمضمون لم يكن مطلوبًا التوقف عليه أو فهمه.

ميخائيل كولموف وهو صحفي مات في المنفى ع(1898 ـ 1942) صور في إحدى مقالاته الهجائية أحد قادة الحزب المحليين كيف كان يصرخ لساعات ضد المعارضين للمحاكمة ويقول لهم: «الموت لأعداء الرأسمال» لتجيب الجماهير باندفاع شديد: «الموت» دون أن يفهم أي من الحاضرين مغزى تلك الجملة. فيكفي لذكر «المحكمة» «الموت» «الرأسمال» ليتأجج غضب الجماهير لما لتلك الكلمات من تأثير على نفسية الجماهير.

من 1958 الى 1964

الأشخاص الذين كانوا يتحكمون في الصحافة وأجهزة العدل كانوا يتوقعون أن كل شيء سيتم على ما يرام. وما كان يشجع ذلك الشعور هو عدد المرات والقضايا التي تمت بنفس الشكل دون أن تثير أي ردة فعل من طرف الأنتلجنسيا الى حد شككنا بوجود أنتلجنسيا في هذا البلد..

لنتذكر ظروف قضية باسترناك وظهور روايته «الدكتور جيفاغو» في إيطاليا (نوفمبر 1957) جائزة نوبل (أكتوبر 1958). أبعد الكاتب

بوريس باسترناك من اتحاد الكتاب (27 من أكتوبر) ورفض جائزة نوبل في(92 من أكتوبر)، وتم توجيه تهمة ضد باسترناك خلال اجتماع عام لاتحاد الكتاب في موسكو (31 أكتوبر): وتم إقرار «التقدم بطلب من الحكومة سحب الجنسية السوفييتية من باسترناك كما نشرت في جريدة» ليتراتورنيا غازيتا» صفحة كاملة لرسائل القراء تتهم باسترناك بالخيانة (1 نوفمبر) كما نشرت لباسترناك رسالة يوضح فيها لماذا رفض جائزة نوبل: «... لقد اقتنعت بأن هذه الجائزة هي في الحقيقة خدعة سياسية خلقت مشاكل مذهلة» (5 نوفمبر)

إن المشكلة التي أثيرت حول باسترناك دامت وقتًا طويلاً لكن لا أحد احتج على هذه المؤامرة والخدعة. خمسة عشر كاتبًا وشاعرًا ومسرحيًا ألقوا بكلمات في التجمع العام لاتحاد الكتاب في موسكو وثلاثة عشر آخرين لم تعط لهم الكلمة. كل من حضر كان يوافق القرار وقليلون هم الذين ذهبوا كي لا يصوتوا كما فعل المترجم فلاديمير روسيل.

بالطبع ذهب بعض الأصدقاء والشعراء الشباب لزيارة باسترناك لكن لا أحد قام بفعل أو تنظيم ليناهض به ما وقع. لا أحد اعترض من أجل الكاتب لا علنيًا ولا حتى سريًا. الكل كان خائفًا. أما في الصحف فنشرت عشرات ومئات الرسائل التي تدين الكاتب وتهاجمه وصرح أحدهم ويدعى أ. دوبينسكي أنه خارج الخدمة...» «... أن مكانه في المزبلة» أما المتقاعد ف. سيمنوف فقال: «إنه كلب مسعور إنه ليس بالسيد باسترناك بل إنه الغباء المظلم بعينيه».

كانت رسائل الكتاب أكثر عنفًا وشدة بحيث كتب نيكولاي رايلندوف:

«لقد تحول إلى هتاف وقد أدار الشعب له ظهره بكل احتقار». أما غالينا نيكولاييفا فكتبت: «... رصاصة في رأس هذا الخائن دون أن ترجف يدي... لكتابته لتلك المعصية وذلك الغدر»

لم يحاول أحدهم الفهم. لماذا؟ نحن لسنا هنا كي نجيب على هذا السؤال الصعب. لنقول فقط إن الخوف كان يسود وإنه بالرغم من المؤتمر العشرين فإن الرأي لم يكن ناضجًا بعد ليعارض ويناقش.

مرت خمس سنوات على بداية محاكمة برودسكي. قضية برودسكي تختلف عن قضية باسترناك فهذا الأخير كان كاتبًا كبيرًا له تاريخ خمسين عامًا من العمل يحاكم ويهان لكن برودسكي لم يكن إلا رجلًا شابًا مجهولاً تمامًا من الجمهور. لكن القضيتين تتشابهان ولهما نقطة مشتركة وهي كما قال جوكوفيسكايا: «غضب الشعب» حين يعبر العمال الكادحون الشرفاء عن امتعاضهم العميق...»

في نفس السياق كتب أحد العمال ويدعى ف. فاسلييف: «هذا الشخص ليس كاتبًا لكنه عدو لطبقة العمال... لم أقرأ لـباسترناك لكنني أعرف أن بدون هؤلاء «الضفادع» فإن الأدب سيكون بخير (ليتراتورنيا غازيتا» 1نوفمبر 1958).

إن من كتبوا رسائل في هذه المجلة لا يعرفون لا باسترناك ولا كتاباته وبالرغم من جهلهم هذا هم يصرحون إنهم مستاؤون مما كتب. نفس الشيء تكرر بالضبط في محاكمة برودسكي فالشهود لم يكونوا يعرفونه ولا مطلعين على كتاباته. وهذا الوضع أصبح عاديًا ولا يثير أي استغراب.. نفس المسرحية ونفس المهزلة تكررت مع آنا أخمدوفا وزوشتشينكو وسولجنستين وساخاروف وغيرهم.

في غمار قضية باسترناك الكل سكت بالرغم من المواقف العديدة الإيجابية التي كانت تعد لحسابه. وفي المقابل فإن محاكمة برودسكي أثارت موجة متعاطفين ومعارضين لتلك المهزلة ولأول مرة وبعدها تلت مواقف أخرى إيجابية في قضايا مثل قضية سينايفسكي دانييل ثم قضية سولجنستين

(منذ «رسالته لمؤتمر اتحاد الكتاب» إلى يوم إبعاده) ثم بعد ذلك أتت قضية ساخاروف وغيرها.

الشهود

هكذا استمرت الحياة وسط خديعة كبرى كأننا في عالم الأراكوزات وفن الأخاديع البصرية لم تكتف المحكمة بإصدار قرار توقيف ضد برودسكي فحسب بل ضدنا نحن كذلك كشهود دفاع. وكتبت المحكمة في حقنا قرارات بعثت لمشغلينا مثلاً: «فلان... برهن على عدم فهمه للسياسة وعن عدم انتقائه للحضره وعن عدم وعيه السياسي.» وبعيد استلام هذه الرسالة تم استدعاؤنا بالطبع لاجتماع في المكتب.استقبلنا أ. بروكوفييف بوجهه الخنزيري شديد الاحمرار وصرخ كثيرًا. ليس باستطاعتي أن أعيد مجموع التفاهات التي تلفظ ورددها بصوت أجش وجُمل متقطعة. كان الآخرون يصغون إليه في صمت ويردون بين الحين والآخر بعبارات تدل أحيانًا على الذل وأحيانًا كانت عباراتهم تهكمية ضمنيًا. ومغزى الحديث يمكن أن يلخص كالتالي: «نحن أعضاء اتحاد الكتاب ذهبنا للإدلاء بالشهادة دون أن نأخذ مسبقًا الموافقة والإذن من الإدارة. وأن شهاداتنا كانت تجري بعكس قرارات الإدارة. ولقد برهنا

على عدم نضجنا وأثبتنا أننا غير ملمين بالسياسة. وهذا الحادث أرغم الحزب على تنبيهنا كما عبر لنا الحزب عن عدم رضاه عنّا.»

لكن رغم ذلك فإننا اعترضنا ولم يأبه البروفسور أدومي وأبى إلا أن يؤكد مدى عبقرية برودسكي التي يجب علينا حمايتها وتقديرها كما أكد على ضرورة التعامل معه بحذر واحترام.

شرحت ن. أيغرودينينا من جديد كما فعلت من قبل في المحكمة كيف أن برودسكي كان يتردد على المحاضرات الشعرية للشعراء الشباب وكيف أننا عقدنا عليه آمالاً كبيرة كشاعر ومثقف.و أضافت ـ مبرهنة مرة أخرى على شجاعتها وعدم خضوعها ـ واتهمت فوايفودين بأنه أخطأ بتقديمه تقارير كاذبة في حق برودسكي وانتمائه السياسي وأن التقرير ادعى أنه نابع من شهادات الكتاب الشباب ولكنه في الحقيقة لم يكن إلا قرارًا شخصيًا كتبته فوايفودين لم يسمع عنه آخر من قبل. وقد اعتمد الحكم والعقوبة بشكل خاص على ذلك التقرير الذي نظر إليه كأنه رأي جماعي لاتحاد الكتاب في شخص برودسكي.

أما بالنسبة لي فإني التزمت بدلائل قانونية:

ـ نعم إننا حضرنا إلى المحكمة دون إذن من الإدارة، كان بوسعهم أن يتابعونا بتهمة الإدلاء بشهادات كاذبة أو يلقوا القبض علينا إن استدعى الأمر لكنهم لا يفعلون. إن شهاداتنا كانت تقول الحقيقة كيف ما كانت تبدو لنا. لم نقل الكذب في المحكمة لكن في المقابل فإن فوايفودين هو من كذب ولكن لا أحد يتجرأ على مواجهته. منذ متى كان يتحتم علينا أن نطلب الإذن من رؤسائنا كي ندلي بشهادة؟ إن الشاهد كما تعرفون يدلي بشهادته تحت القسم ويجب عليه أن يقول الحقيقة ولا شيء غير

الحقيقة. ونحن لم نخل بالقسم الذي قدمناه. من المحتمل أن لا تكون تلك الحقيقة قد راقت للبعض ولكن هذا لا يخصنا إذ أن الحقيقة هي هكذا لا تروق للجميع. استلم أعضاء الإدارة الكلمة بدورهم ولا زلت أتذكر خطاب بيوتر كابيتسا هذا الناشر والكاتب الدنيء والذي بدا وكأنه يكرر ما سمعه سابقًا من أعضاء اللجنة:

- إننا قمنا بتفنيد - بطيبة منا - اتهام برودسكي بالتطفل على المجتمع والعيش عالة عليه. لكن أهذا هو أساس القضية؟ إن برودسكي ضد السوفييت وإنه يسب ماركس ولينين في كتاباته الشخصية ولقد حاول أن يستقل طائرة ذاهبة إلى سمرقند وهذه لم تكن مزحة أو نكتة. إنكم تتعاطفون مع برودسكي ولكن دعوني أسألكم أكان من الأفضل له أن يحاكم بتهمة المعاداة للسوفييت أم بتهمة التطفل على المجتمع؟ هل محاكمته كانت سياسية؟ فإذا كانت هكذا فإن المحكمة لم تكن لترسله حيا يرزق إلى قرية في الشمال لكن كان بالتأكيد سيرسل إلى سجن من تلك السجون المريعة. أتظنون أنه كان سيكون شاكرًا لكم حينها؟ كان الحظ يحالفه لأن الأعضاء رأفوا بحاله إذ وافقوا أن يحاكم داخل محكمة شعبية وأن تكون العقوبة في إطار القانون الإداري وأن لا تتم إدانته في جرائم أخطر. كيف لم تفكروا في ذلك؟ وها أنتم الثلاثة تتقدمون إلى المحكمة لتخربوا كل شيء. وها أنتم تبررون أنه لا يمكن اتهام برودسكي بالتطفل والعيش عالة على المجتمع. وهذا الوضع كان سيؤدي بالمحكمة إلى أن تغير في التهمة وأن تتهمه بمعاداة السوفييت الشيء الذي كان ودون محالة سيأخذه إلى المعتقل السياسي الخطير لحسن حظه تدخل فوايفودين الذي نقذه.

أثار هذا الخطاب بلبلة. وقلنا بوضوح إن المحكمة الشعبية لا يمكن أن تكون محل مؤامرات دنيئة. فإذا كنا متأكدين أن ثمة شخصًا مجرمًا قاتلاً على سبيل المثال فإن العفو لا يجب أن يكون واردًا في حقه ولا يجب أن نغير التهمة بوصفها طلقة نار طائشة. وحتى حينها لا يصح العفو كما أن أعضاء الـكي جي بي غير مجبولين على العاطفة الإنسانية والسماح وإنهم حين لم يتابعوا برودسكي بتهمة معاداته للسوفييت فببساطة لأنهم لا يملكون أدنى أدلة على ذلك. وكل ما شاهدناه وعايناه كان مجرد مسرحية وتلفيق بدليل ما قرأه الوكيل من مذكرات قديمة للشاعر، مذكرات تكاد ترجع إلى طفولة برودسكي وما قرأه من مقاطع رسائل لا ندري كيف وصلت إلى المحكمة ومِن مَنْ وأنتم تعرفون أنه لو ثبتت صحة تلك الكتابات فإنكم لا تستطيعون إدانته بها لأنها ببساطة كانت كتابات شخصية لا تصلح للإدانة.

عقب ذلك ألقى غرامين خطابًا قصيرًا يدين فيه ما قُدّم من أوراق مزورة، الشيء الذي يدينه هو أولاً لكونه رئيسًا للجنة التي كتبت التقرير وهكذا أخذ يدافع عنا وعن التوضيحات التي أدلينا بها.

لكن بروكوفييف كان يمثل السلطة العليا وقد تمت إدانتنا بـ«عدم الوعي السياسي وعدم الحذر وعدم الفهم...» لكن الحقيقة الواضحة هي الإدلاء بشهادة تجري عكس رغبة لجنة الحزب يعني عكس بروكوفييف.

انعقدت بعد يومين اللجنة المكلفة بالعمل مع الكتاب الشباب وكان سكرتيرها فوايفودين الذي قدم عرضًا، ثم أخذت الكلمة لأتحدث عن

التقارير الكاذبة والمزورة ثم أبلغ غرانين بصفته رئيسًا أن ينهي النقاش. ثم طلب فوريًا إبعاد فوايفودين لأنه خان ثقة اللجنة بتضليلها وتمويه الحقيقة فصوت جميع أعضاء اللجنة جماعيًا على قرار إبعاده.

منذ ذلك اليوم انقسم اتحاد الكتاب إلى فريقين: فريق الرجعيين وعلى رأسهم بروكوفييف، وقسم دانييل غرادين ولم يكن بروكوفيف وحيدًا في فريقه. لم تكن إدارة موسكو سعيدة بهذا الوضع بل استاءت لهذا الخطأ الشنيع المسمى «بقضية برودسكي» وقررت أن تبادر بدورها وتبرهن على حسن نيتها وقررت أن تساند الموظفين الذين خسروا المعركة.

سنة 1964 حين كان تشايكوفسكي رئيس تحرير Literatournaia gazeta وعضوًا في اتحاد الكتاب السوفييت ـ متواجدًا في أمريكا اصطدم بأسئلة الصحافيين المحرجة:

ـ هل تظنون أنّ ما وقع لبرودسكي هو مرتبط جذريًا بنظام السوفييت؟ وهل لهذه القضية تأثيرات على حرية التعبير في السوفييت؟

أجاب تشايكوفسكي بحذر:

ـ برودسكي هو ما نطلق عليه عندنا بالحقير إنه نذل فقط. لقد تمت محاكمته علنيًا وفق القانون وقد استفاد من حق الدفاع. وبعد الاستشارة مع مختصين في الأدب وممثلين عن الرأي العام قررت المحكمة إبعاده عن المدينة وهكذا سيتمكن من القيام بعمل مفيد وشريف هذه المرة. وإني أجد أنّ من المضحك هذا التمثيل بالتعاطف المنافق مع ما يسمى «بقضية برودسكي» بينما عندكم لا يزال المجرمون والارهابيون أحرارًا يجوبون الشوارع وهم الذين يقذفون الكنائس والفتيات بالقنابل.

نشر هذا الحوار التاريخي في صحيفة نيويورك تايم في 20 ديسمبر من سنة 1964. في لينىغراد لم يكن تشايكوفسكي ليستطيع أن يتلفظ بمثل هذه الكلمات، كان بكل تأكيد سيأخذ الحذر، لكن وجوده بعيدًا في الولايات المتحدة جعله لا يكترث كثيرًا حين يكذب.

بعد فترة قصيرة إبان الانتخابات العامة في اتحاد الكتاب تم إقصاء بروكوفييف وتم تنصيب غرادين عوضًا عنه. كما تم تنصيب أدوموني غرودينينا وأنا أعضاء في إدارة الاتحاد خلال أول اجتماع للجنة اهتمت اللجنة بالنظر في التهم التي وجهت إلينا بغير حق وصوت الجميع على إلغاء تلك التهم. كما قام الرئيس الجديد بتقديم اعتذار رسمي للإدارة.

كل هذه الأحداث جرت وبرودسكي مبعد في قريته النائية هنا في الشمال. بالطبع فإن انتصارنا كان له وقع كبير في تلك الظروف ولم نكن نتوقع ذلك الفوز العارم وغير المشروط فتبخر أعداؤنا وحتى كابيتسا.

قالت إنها كانت تؤمن بأننا كنا على حق. حتى برون ـ الذي آزر بروكوفييف

بقسوة وإصرار ـ بدا الآن وكأنه نسي أنه بذل كل جهوده لكي تتم إدانتنا حينها.

بعد مضي بضعة أشهر تم الإفراج عن برودسكي وجيء به الى لينينغراد. تمت تسوية وضعه وفي أول سابقة لها اعترفت المحكمة كتابيًا بأن قرار توقيفنا كان عن خطأ. كل هذا حدث في 1964...

بعد مرور عشر سنوات

بعد مرور عشر سنوات تحديدًا أي في سنة 1974 كتب الـكي جي تقريرًا عنّي يتحدث عن نشاطاتي المعادية للسوفييت وفي التقرير تم التطرق إلى «قضية برودسكي» كأنه لم يتم قط التراجع عن القرار وإلغاؤه. سنة 1974 لم يعد السكرتير يتذكر أي شيء عن ما حدث ولا عن تبرئتي من قضية برودسكي ولا حتى إلغاء القضية نفسها إذ لم يحاول حتى الاستفسار حول الأمر.

وفي ما يلي مقطع ممّا جاء في التقرير حيث تطرق التقرير إلى علاقتي مع سولجنتسين ثم علاقتي بقضية برودسكي.

«هناك أشياء أخرى تبرر معاداة إيفيم إيتكند للسوفييت. في بداية شهر أبريل كانت له علاقة بقضية إجرامية تتمثل في نسخ وتوزيع منشورات ضد الاتحاد السوفييتي والنظام وقد تم ضبط الكثير منها خلال المداهمات.

وتلك المداهمات كانت تخص بيت مارامزين وبيت خيافيتيس (و الاثنان ولدا سنة 1934) وهما عضوان في قسم اتحاد الكتاب في لينينغراد. خلال هذه المداهمات قبض على وثائق كانا يعدانها للنشر: عند ضبطت خمسة كتب لأشعار برودسكي (حوالي 200 صفحة) وعند خيافيتيس ضبطت مقدمة لتلك الكتب بعنوان «بروديسكي وجيلنا» في هذه المقدمة ينتقد الكاتب السياسة الداخلية ويقول إن عدم اعتراف الدولة بأعمال برودسكي يبرهن على عدم وجود أية حرية تعبير أو إبداع في الدولة.

...علاوة على هذه المقدمة عثر عند على وثيقة أخرى كتبت بخط

يد إيتكند والوثيقة عبارة عن تكملة للمقدمة حيث يوافق إيتكند على الاتجاهات السياسية لخيافيتيس ويلفت النظر إلى أحداث 1956 في هنغاريا التي، حسب رأيه، تلخص الاتجاه غير الديمقراطي للحكم في الاتحاد السوفييتي والتي أثرت على كتابات برودسكي، كتب إيتكند:

«تخيلوا قليلاً، لقد انعقد المؤتمر العشرون وكانت الكلمة للحق، قد فتحت أعيننا على الماضي وعلى ثمن الانتصار... في الجانب الأول كانت الحبال والقنابل وفي الجانب الآخر كانت الدبابات والرشاشات....إن أحداث هنغاريا أججت من جهة كرهًا ضد الإمبريالية ومن جهة أخرى أكدت الإيمان بأن الوضع أصبح بدون حل. هذا التناقض في المبادئ - في هذه السنة 1956 - أحدث صدمة كبيرة. إن برودسكي كان له الحق في أن يتطرق لذلك ويحتذي به. لكن في سنة 1968 كان الناس قد نسوا بسرعة كل ما قيل في المؤتمر العشرين والثاني والعشرين. كما نسيت قضية كيروف البائسة حيث تعاقبت من زمن طويل وأنهي الأمر...

لكل هذه الأشياء لم يستغرب أحد حين دخلت الدبابات إلى قلب براغ.»

حين تم استجواب إيتكند في القضية المذكورة بصفته شاهدًا، أكد أنه هو من كتب تلك المقالات كما كان واعيًا بأن خيافيتيس كان له موقف مخالف لسياسة الحزب. زيادة على ذلك قال إيتكند إنه لم يخف استنكاره واستياءه عندما دخلت القوات في معاهدة فارسوفي إلى تشيكوسلوفاكيا سنة 1968.

قال خيافيتيس خلال استجوابه إن مقدمته التي كتبها نالت إعجاب إيتكند.

وكما هو معروف فان إيتكند كانت تربطه علاقة وطيدة مع برودسكي

الذي هجر الاتحاد السوفييتي متوجهًا إلى إسرائيل سنة 1972 والذي يعيش حاليًا في الولايات المتحدة الأمريكية.

إن برودسكي كاتب الشعر الذي يعتبر سُما أديولوجيًا في هذا البلد كانت له علاقات مع الخارج الذي كان يبعث لها بأشعاره وكتاباته تدين الاتحاد السوفييتي وحكمه. إن تصريحات برودسكي وأشعاره استعملت في الترويجات البرجوازية ضد مصالح الاتحاد السوفياتي.

حاول إيتكند في توضيحه وتفسيره للعلاقة التي تجمعه مع برودسكي أن يبين للأدباء والكتاب المبتدئين أنّ لديه أفكارًا «مستقلة»

لقد قام بإدلاء شهادة في قضية برودسكي لصالح المتهم وعبّر بقوله: بـ« حق الإبداع وحق الحرية في الحياة»

في ماي 1964 خلال اجتماع لاتحاد الكتاب في لينغراد تمت إدانة جماعية لكل من قام بمساندة ومؤازرة ذلك المتطفل برودسكي. لكن إيتكند لم يعترف بعدها أن شهادته في قضية برودسكي كانت شهادة مضرة كما أن رد فعله لم يكن إيجابيًا على رأي ونقد أعضاء الاتحاد.

هكذا قام بمشاركة كل من مارامازين وخيافيتيس بترويج أشعار برودسكي الخطيرة التي تنقد إيديولوجيتنا.

قرأ هذا التقرير السكرتير الأول لاتحاد الكتاب في لينينغراد ج. خولوبوف حينها والذي يشغل الآن مكان مدير تحرير Zvezda»زفيزدا الجريدة الأدبية الأكثر أهمية في لينينغراد.

إيفيم إيتكند

الفصل الخامس

قرار 4 يونيو حول التطفل الاجتماعي

قرار (Oukas) هذه الكلمة القديمة كانت تستخدم في عهد القياصرة، لكنها أخذت تستخدم من قبل ستالين في عام 1963 لتحلّ محلّ كلمة قرار التي تم تبنيها بعد الثورة.

وهذا القرار الصادر من رئاسة مجلس السوفييت الأعلى يختص بتكثيف مكافحة الجرائم الخطيرة على الخصوص.

372 ـ قرار مجلس السوفييت الأعلى المختص بتكثيف مكافحة الأشخاص الذين يسجلون أسماءهم في العمل المفيد اجتماعيًا إلا أنهم يعيشون حياة طفيلية ضد المجتمع.

472 ـ قرار مجلس السوفييت الأعلى المختص بمناهضة جريمة التصنيع الحرفي لخمور الفودكا المكرّرة أو أنواع الخمور الأخرى.

ـ قرار 4 يونيو لعام 1961 الصادر عن مجلس السوفييت الأعلى المختص بتكثيف مكافحة الأشخاص الذين يسجلون أسماءهم في العمل المفيد اجتماعيًا إلا أنهم يعيشون حياة طفيلية ضد المجتمع.

بلدنا، تحت قيادة الحزب الشيوعي، دخل في مرحلة التطوّر الكثيف

للشيوعية، المواطنون السوفييت يعملون بحماس في الشركات وساحات العمل والكولخوز والسوفكوز والإدارات، يؤدون في عوائلهم وظائف مفيدة للمجتمع، يراعون القوانين، ويحترمون قواعد الحياة الاشتراكية العامة، ومع ذلك في المدن والأرياف، مايزال يوجد أشخاص معزولون ويرفضون بعناد العمل بشرف.

وعادة هؤلاء الأشخاص يأخذون أعمالاً وهمية، وفي الحقيقة يعيشون من الموارد المالية التي لا تأتي من ثمرة العمل، ويغتنون من مصاريف الدولة، مصاريف العمال، والكل جديرون، بألا يعملوا عامة في أي مكان، ويمارسون أعمالاً ممنوعة، ولهم نشاط في شركات حرة، من خلال المضاربة والشحاذة واستخدام قوى العمل المأجور، ويأخذون العوائد المالية التي لا تأتي نتيجة للعمل، من استغلال السيارات الخاصة، أو في أعمال البناء في المدن أو تشييد المنازل في الأرياف، ويشيدون المنازل والفلل بالأموال التي لم يجنوها من العمل، ويستخدمون مواد البناء التي حصلوا عليها بصورة غير شرعية، ويقترفون أعمالاً ضد المجتمع.

في الكولخوز، أفراد من هذا النوع، يستفيدون من الفوائد التي يحققها الكولخوزيون، الذين يعملون في مهنة شريفة، ويصنعون بأنفسهم ماء الحياة، ويعيشون متطفلين، ينقبون في الأساس عن نظام العمل، ويكبدون اقتصاد الكولخوز الخسارة والضرر.

حياة التطفل لهؤلاء الأفراد ترافقها، بصورة عامة، حالات السكر والانحطاط الأخلاقي، وخرق قوانين الحياة الاشتراكية العامة، وكل هذه الأشياء تمارس تأثيرًا مشؤومًا ونحسًا على الأعضاء المتضررين في المجتمع.

من الضروري أن نقود صراعًا حاسمًا ضد العناصر الطفيلية والمضادة للمجتمع، حتى القضاء الكامل على هذه الظاهرة المخجلة لمجتمعنا، في إحاطة هؤلاء الأفراد بجو من عدم التحمل والنبذ العام.

ويجب الأخذ بعين الاعتبار الاعترافات العديدة التي عبّر عنها العمال، فيما يخص تكثيف مكافحة العناصر المضادة للمجتمع، لذا فقد قرر مجلس السوفييت الأعلى ما يلي:

1 ـ من يحاول ممارسة التطفل الإجتماعي يوضع تحت الإقامة الجبرية لمدة من عامين إلى خمسة أعوام، ويتم حجز ممتلاكاته.

2 ـ قرارات المحكمة بصدد هؤلاء الأشخاص المتطلفين نهائية ولا تُناقش.

3 ـ قرار الحجز وإلقاء القبض ينفذ بواسطة رجال الشرطة والنيابة.

4 ـ يتعرض هؤلاء الأشخاص المتطفلون لغرامة مالية وتُبعث ملفاتهم إلى النيابة.

5 ـ قرارات المحكمة الشعبية يتم تنفيذها من قبل رجال الشرطة.

6 ـ مَنْ يثبت نفسه بأن لديه النيّة في العمل يتم تخفيض عقوبته.

7 ـ على مجلس الوزراء تنفيذ هذه القرارات.

رئيس المحكمة. ن. أورغانوف.

سكرتير المحكمة: س. أورلوف.

موسكو في 4 مايو 1961



الفصل السادس

جائزة نوبل للآداب

إيفيم إيتكند

اختيار غريب

في 23 أكتوبر صباحًا تلقيت مكالمة هاتفية من القناة التليفزيونية الثانية: «اليوم في تمام الساعة الواحدة سنعلم من الذي سيفوز بجائزة نوبل للأداب، وكما يبدو أن الفائز سيكون جوزيف برودسكي. أنت تعرفه منذ زمن طويل، وإذا قيّمناه حسب كتابك (معارض رغم أنفه) بإمكانك أن تحضر إلى هنا في الساعة الواحدة، وبإمكانك الحديث عنه إلى جمهور المشاهدين».

وعند وصولي إلى القناة التليفزيونية الثانية، وجدت اختصاصية في آداب أمريكا اللاتينية تنتظر أيضًا لأن أوكتافيو باث كان مرشحًا أيضًا للفوز بجائزة نوبل، وكان منافسًا حقيقيًا وحادًا لجوزيف برودسكي.

وهناك أيضًا مرشحون آخرون على الخط، على سبيل المثال، الكاتب الروسي جنكيز إيتماتوف، كاتب يعد من كتّاب الروايات والقصص، وهو معروف بعمله المتميز «ويطول اليوم أكثر من قرن» الذي أثار ضجة آنذاك.

لكن في هذا اليوم 23 أكتوبر ـ الساعة الواحدة (ودقيقتين بعد الظهر) عندما تدفق شريط الفرق من جهاز التلكس أول من قرأه، بدأ يصرخ: برودسكي.. برودسكي.

هكذا فضّلت الأكاديمية السويدية جوزيف برودسكي بين أوكتافيو باث وجنكيز إيتماتوف.. ولم يكن في جعبة برودسكي سوى ربع الأعمال الشعرية التي أبدعها أوكتافيو باث على مدى ستين عاماً، إضافة إلى أنه كتب المقالات والموضوعات النقدية عن الشعر، والزمن والفضاء والأحاديث، كانت مقيمة عند الكاتب البارع وذائع الصيت على المستوى العالمي، ولم يكن برودسكي معروفًا مثل جنكيز إيتماتوف حيث ترجمت معظم أعماله إلى لغات عديدة مثل «الزورق الأبيض» و«جميلة» و«وداعاً غولساري» 1958 ترجمها آراغون إلى اللغة الفرنسية، بالإضافة إلى أن إيتماتوف، كان بطل العمل وحائزًا على جائزة لينين وحاصلاً على ألقاب شرقية عديدة، ويبلغ من العمر 60 عاماً.

برودسكي!

لم يكن يحمل أي منصب أو أي لقب شرفي، وحتى عمره 47 عاماً لم يكن ملائمًا.

باستثناء ألبير كامي، الذي حاز على جائزة نوبل وعمره أقل من 60 عامًا، بالإضافة إلى أن برودسكي كان بصفة أساسية متفردًا فيها، وفي خطاب الشكر الذي ألقاه، أعلن (حتى أنه بدأ خطابه هكذا): بالنسبة للفرد، الفردية مفضّلة لديه من أي دور اجتماعي ـ بالنسبة لشخص دفع هذا الخيار إلى أبعد ما يمكن، وعلى الخصوص تجاه وطنه، وأعتبر أنه

من الأفضل أن أكون معدومًا بين البشر في أمة ديموقراطية على أن أكون شهيدًا أو مفكرًا في بلد مستبد، وأن أجد نفسي فجأة على هذا المنبر ليس سهلاً، وهذا اختبار. .

ومنذ مدة طويلة لم يتركوا هذا الفائز بجائزة نوبل على راحته.

فقد أعطى مئات المقابلات للصحفيين، والإذاعات، وتلفيزيونات العالم بكامله، لكنه لم يتوقّف عن تأييد فرادته، ولم يقدم على خيانة مبادئه، ولم يترك نفسه لإعطاء دروس الحكمة للبشرية، وحتى في ستوكهولم، وأثناء الاحتفال بتوزيع الجائزة، وأثناء المؤتمر الصحفي، حيث يأتي دون انقطاع على فكرة عزيزة على قلبه وهي: أن جائزة نوبل منحت إلى اللغة الروسية، وأن الكاتب هو روح اللغة وليس العكس.

ما الذي قاد الأكاديمية السويدية إلى أن تدفع إلى الظل رؤوسًا شائبة متأججة بالجوائز، ورجالاً مليئين بالأعمال والألقاب، وتفضّل شخصًا غير معروف في الغرب، فرد محض وشاب بالنسبة لقامتهم؟

ويضاف إلى ذلك أن أشعار برودسكي صعبة الترجمة، وأغلب الترجمات التي أعرفها رديئة، فقدت حتى سحر ظلالها بالمقارنة مع الأصل.

ويضاف أيضًا في جميع بلدان الغرب، منذ عشرات السنين، الشعراء يكتبون الشعر الحر، في شكل يقترب من قصيدة النثر، وتبدو لهم الأوزان والبحور قديمة ومتجاورة، وبالأحرى مؤلفة من مقاطع شعرية.

والشعراء، أغلبهم، يعتقدون أن الوضوح ضارّ بالشعر، وهو يؤدي

به إلى شكل النثر البدائي، بالنسبة لهم، الشعر موجه إلى حلقة ضيقة من الهواة، إلى نخبة، وليذهب القارئ إلى الجحيم، ذلك القارئ الذي لا يفهم ترابط الأفكار الصعبة أو الإشارات الذاتية للشعر، في هذه النقطة ليس برودسكي شاعرًا حديثًا، في أعماله، أي أن الأسلوب الرجعي الذي يهيمن عليه، في هذا المعنى. ذهبت الأكاديمية السويدية في الاتجاه المعاكس لما يمكن انتظاره.. الشعراء ذوو القيمة موجودون، وفي الحقيقة الذين يكتبون الشعر «الحديث» ولا نذكر سوى رينيه شار وإيف يونفوا: وهما شاعران من الطراز الأول، أشعارهما الحرّة في صميم أجواء العصر، وهذه المرة فضّلت الأكاديمية السويدية أن تدافع عن الأشكال التي عفى عليها الزمن أي الشعر التقليدي في الشكل.

هنا مثالان متميزان لبناء الفقرات الشعرية عند برودسكي:

معًا لطالما عشنا مرة من جديد

العشرون من ديسمبر صادف يوم الجمعة

حيث دهشنا لارتفاع حاجب العين عاليًا

مثل عتلة التنظيف على لوح زجاجي ممنوع

لوجه يمحو تأثير الوجه الحزين المشكوك به،

تاركًا السكينة والاتساع إلى الطريق من بعيد.

معًا لطالما عشنا مثلما عاشت الثلوج

التي أخذت في الانهمار، كشيء سرمدي

يلوي جفونه التي رحلت عنها مبكرًا
وبكفي المنحنيين أحميهما،
وهي دون اعتقاد تقصد حمايتهما
وهما تتملصان مثل فراشات مستنفرة.

ترجمة: أيف مالريه

بإعطاء جائزة نوبل للآداب لبرودسكي، أخذت الأكاديمية السويدية بعين الاعتبار لا شهرته، ولا عمره، ولا الشكل التقليدي لقصائده، إنما في النهاية كلاسيكية خارجة عن الموضة من حيث صورها وأفكارها، هنا وهناك، ظهرت عنده الأوديسا والتليماك، والإمبراطوريون والجنرالات الروحانيون والشعراء اللاتينيون.

نجح في إقناع الأكاديمي بأنه يوجد شيء ما أكثر أهمية من كل شيء، وهو ما يمكن تسميته النقاط الضعيفة مجتمعة.

ولاحظ الأكاديميون، من أجل شرح اختيارهم، أن شعر برودسكي يتميز من خلال كثافته الاستثنائية في الحياة والروح والنفس، من خلال أفق ثقافي واسع، ومن خلال الصفات الفنية اللامعة، وبعبارة أخرى: برودسكي شاعر كبير.

ايفيم ايتكند



الفصل السابع

الشاعر

الشعر الميتافيزيقي أو ميتافيزيقيا الشعر

في عام 1972، اضطر جوزيف برودسكي إلى مغادرة روسيا السوفييتية. وأصبح بعدها يحمل لقب شاعر روسي يعيش في نيويورك دفعته الظروف إلى الهجرة لأميركا. لم يكن متحمسًا للسياسة. وقد شرح أبعاد تلك المسألة في خطابه الذي ألقاه أثناء استلامه جائزة نوبل. بالنسبة للكاتب، لا يكمن الخطر الحقيقي في ملاحقة الحكومة، بل في إمكانية انبهاره بالتغييرات التي تقوم بها، وذلك ما يؤثر على نتاجه الشعري وأشكاله الشعرية بطريقة مؤقتة. بالنسبة لجوزيف برودسكي، فإن الأدب وخصوصًا الشعر مقابل السياسة يعني الأبدية أمام الزائل الصابر والمطلق أمام الانتقالي المؤقت» اللغة، والأدب كما يبدوان لي قد تطورا على كافة أشكال التنظيم الاجتماعي.

فالسخط والسخرية أو اللامبالاة التي نلقاها عادة في الأدب، عندما يتعلق الأمر بالحكومة، إنما هي في الجوهر ردود أفعال حازمة أو على الأكثر خالدة، أمام ما هو مؤقت ومحدود.

في المناطق التي يتواجد فيها برودسكي لا يوجد أثر للسياسة وفي نظر الشاعر، في أفضل الحالات، فإنها، أي السياسة، تظهر نوعًا من الهيجان المجرد من الأحاسيس، مثل تناقض - غير متناغم وعقيم - لكراماتهم تحركها انشغالات تافهة.

في نهاية المطاف، كان هذا موقفه على الدوام. قصيدته الأولى (التائهون) 1969، عرفت شهرة واسعة بين الشبيبة السوفياتية، هذه القصيدة لم تنتشر أبدًا في الاتحاد السوفياتي،

إلا أن الطلبة كانوا ينشدونها على أنغام الغيتار في سنوات الستينات:

التائهون

على امتداد الأديرة والحلبات

على امتداد المعابد والحانات

على امتداد المقابر المختارة

وعلى امتداد البازارات الفسيحة

بمحاذاة المآسي و****

على امتداد روما ومكة

تحت الشمس الزرقاء الحارقة

إنهم يمضون من على الأرض

التائهون.

***

إنهم كسيحون، مقوسو الظهر جائعون، ونصف عراة.

في أعينهم ينام النعاس

في قلوبهم ينهض الفجر

وخلفهم تنشد الصحراء،

تنبجس البروق

والنجوم ترتعد فوق رؤوسهم

والعصافير تصدح لهم

وتقول

إن العالم سيبقى كما كان من قبل.

سيبقى كما كان من قبل دونما شك.

مغطى بالثلوج بصورة عمياء على الدوام ناعمًا ومشوبًا بالشكوك أيضًا سيبقى العالم مزيفًا.

سيبقى العالم أزليًا

ولا يدرك إلا بين الحين والآخر

ولكنه متعذر صبره، بصورة مطلقة.

* * *

وإذن، أتؤمن بالذات أم بالله

فهو لم يعد للإنسان سوى زيف.

إذن، لم يبق له بأفضل ما يمكن سوى

سوى الأرض

يبقى الناعسون

على الأرض

يبقى الناهضون.

***

يمنحه الجنود دماءهم

ويمنحه الشعراء المعنى

ما هو المقصود من هذه الأغنية؟ إنها الإنسانية المعاصرة التي تهيم على الكوكب دون هدف ودون سبب، واعية بأن لا شيء سيتغير أبدًا وان فكرة وجود جنة على الأرض قادرة أن تتلاعب في أذهان الجماهير، تلك الفكرة التي لم تكن سوى وهم قبل فترة قصيرة. وفي هذه القصيدة التي تذكرنا بقصيدة Les saltimbanques «المهرجون» لأبولونيير، لا تدخل السياسة في اللعبة كما أنها لا تدخل في اللعبة ذاتها عند أبولونيير:

في ساحة المهرجين

الذين يتباعدون على امتداد الحدائق...

أمام بوابات النزل الريفية الرمادية

في القرى الخالية من الكنائس...

إذا كانت السياسة غائبة فإن هذا الغياب متأت من السياسة ذاتها. ومن الأعالي يتأمل الأرض، يمكننا استخدام كلمات ألكسندر بلوك من وجهة نظر برودسكي: «حيث نعتبر الأرض نجمة يمكن اعتبار النجمة

أرضًا» ومن هنا يكتشف في آن واحد ملامح روما ومكة والكاتدرائيات والحانات والمقابر، والحلبات، شروق الشمس ومغيبها، فالشاعر لا يقدر إلا أن يشعر بأنه يقود البشرية نحو أرض الميعاد حيث تسود العدالة الاجتماعية. إذن ما فائدة الأحزاب السياسية والأيدولوجيات الاجتماعية وصراع الطبقات عندما نجد تحت أقدامنا الأرض التي نقول عنها: «الجنود هم البذور والشعراء هم اللبان». والجنود هنا لا يحملون جنسية معينة ولا ينتمون إلى طبقة اجتماعية محددة، إنهم عبارة عن رجال فقط. رجال كتب عليهم مصير الموت على هذه الأرض - وتتفسخ أجسادهم في باطنها.

أليست هذه هي السياسة؟

وفي إطار التفكير السياسي، يظهر اللاسياسي أكثر خطورة من المنشق.

الشاعر.. المتطفل

كنت قد سمعت بالحديث عن جوزيف برودسكي قبل عام 1963. وحتى أكثر الشكوك والريبة التي تثيرها أشعاره بحماسة إلا أنها لم تقع أبدًا أمام ناظري. حتى إن النشر على الحساب الخاص للمؤلف لم يكن له وجود في ذلك العهد. كانت القصائد تنتقل بطريقة شفاهية، عبر السماع والحديث وكانت تنتقل أحيانًا من يد إلى أخرى - لكن أغلبها كان من النصوص السياسية بالدرجة الأولى. وأشهر تلك النصوص كانت لبوريس سلوتسكي وكانت تتميز بالوعورة والجفاف بشكل مقصود، وباسم جيله، كان سلوتسكي يستوحي الاستنتاجات الشعرية من روحية الليل الستاليني الطويل الذي كان من المستحيل الهروب منه.

الجميع يرقد نائمًا.

وحدهم حراس البنايات يكنسون بغضب وحنق،

كما لو أنهم يقتلعون شرائح

ويحكون تحت الأرض

كأنها أرضية صلبة

إنهم يجتثون

من نظمها الصرخة

ومن قوانينها الكتابة،

آثار ميت ترك منذ ثلاثة أيام

وآثار سابقة

لثلاثين عامًا من سلطة غاشمة،

من العظمة والمآسي

لم يكن برودسكي شاعرًا سياسيًا لذا لم تكن أعماله تنتقل وتدور. ورغم ذلك، فقد حملوا لي بعضًا من وريقاته الشعرية وأعجبتني حقًا. ولفترة طويلة، لم أكن قادرًا على الانفصال عن تلك الأشعار ذات النكهة اليائسة، فهي مقلقة، وساحرة وموسيقية في آن واحد:

في تلك الليلة، وبالقرب من موقد النار

ثمة حصان أسود ظهر لنا...

كان أسود اللون يتلاشى في الظل.

كان كالح السواد لدرجة لا يوجد أكثر عتمة منه

كالح السواد مثل منتصف الليل

كالح السواد مثل خرم إبرة

كالح السواد مثل الأشجار أمامنا.

كالفضاء بين جنباتنا.

كالثقب حيث نزرع الحبوب تحت الأرض.

وفكرت: بأن كل شيء فينا كالح السواد.

كل شيء يصبح كالح السواد بلمح البصر.

لم تكن عقارب ساعتي تشير إلى أكثر من منتصف الليل.

ولم يكن يتقدم نحونا قيد أنملة

بين أفخاذه، كان الظلام دون نهاية.

لم نكن نلمح ظهره.

سوى قبس من الضوء.

كأنه مطارد من نقفة، وبياض عينه يطفح والأكثر رهبة حدقتا عينيه.

كأنه غير راض - ولكن من أي شيء؟

أليس مدهشًا أن يقدم شاب في العشرين من عمره على كتابة أشعار فظيعة لهذه الدرجة حول الموت؟ ورغم صغر سنه، كان سيد الكلمات، والإيقاع والصور الشعرية.

فقد استطاع أن يستوحي من خياله مقارنات واستعارات متناقضة لهذه الدرجة؟

كالح السواد مثل خرم إبرة... كأنه مطارد من نقفة وبياض عينيه يطفح...»

أي شاعر مغاير ومختلف في حداثته عن جميع الشعراء الذين عرفتهم. كان تسيتيافا، مايكوفسكي، كيينكوف، وخصوصًا ماندلستام. إلا أن برودسكي أراد أن يجيب على مشكلات جديدة، كان يطرحها على نفسه وتطرحها عليه المرحلة.

وتعرفت فيما بعد على قصائده الأخرى التي لا تقل عتمة عن قصيدته «الحصان الأسود»:

الموت، هو كل هذه السيارات

السجن والحديقة.

الموت، هو كل أولئك الرجال

الذين تلتف أربطة العنق حول أعناقهم.

***

الموت، هو قوتنا،

عملنا وعرقنا.

الموت، هو توتراتنا،

أرواحنا وأجسادنا،

***

نحن لم نعد نذهب إلى التل

الضياء يفيض على منازلنا،

لسنا نحن الذين نراها

بل هي التي ترانا.

وحده الديماغوجي، ذو العقلية الضيقة، الذي ينبهر ويتعجب لأن شاعرًا شابًا يلتهب حماسًا لكتابة موضوعات «ما وراء القبر». فالرومانسيون ـ ولنتذكر الشاب جوكوفسكي، مترجم «المرثية المكتوبة في مقبرة ريفية» لتوماس غري» ـ اكتشفوا هذه الحقيقة الكئيبة: بصورة بعيدة كما يظهر لنا الموت، إنها هنا، قريبة، لجزء غير مغترب من الحياة. فالذي يعتقد بأنه يأخذ أبعادًا ملموسة، يصبح مدركًا بالحس أكثر فأكثر. إن برودسكي هو وارث هذه الأفكار وهو الذي عمقها. أول قصيدة كتبها أثناء الهجرة، كانت تحت عنوان «عام 1972» وموضوعها الشيخوخة:

أن تشيخ الجسد يموت رويدًا رويدًا يعني أن تصبح الحياة عديمة الجدوى...

..وأنهي أيامي هنا، أفقد

خصلات شعري، أسناني، أفعالي والملتحقات...

إن الهجرة من الحياة إلى الموت عبارة عن تحول تدريجي لـ «الجسد إلى شيء عار».

وهكذا نحو الأفضل / لأن إحساس الرعب/ والأشياء التي لا تبرهن/ وحتى أمام الموت/ لا تخلف آثارًا رطبة.»

قبل عشرة أعوام من كتابة هذه القصيدة، كان برودسكي معلمًا ومفكرًا. كان من المستحيل دعم مثل هذه الأشعار، ومثل عدد آخر من الشعراء الشباب الآخرين، كانوا يبدعون خارج تقاليد الأدب وفي هذه الأشعار، كانوا ينطلقون بنضج حياتي استثنائي، بتجربتها الخاصة للألم وللفكر، مع الفن الأدبي الأكثر صلابة وكثافة، والشكل الذي كان يعطيه هؤلاء الشعراء ما هو إلا ثمرة لطبيعة الحياة البيولوجية ذاتها.

إن المعاصرين يفهمون خطأً، وبصورة عامة، معنى وروحية الشعر الذي ولد تحت أنظارهم. وفي غضون العشرة أعوام الأخيرة، استطاع ثاقب النظر فيهم أن يفهم هذا الأسلوب المجدد الذي يبدو اليوم طبيعيًا وعاديًا، ولنقل غير مختلَفٍ عليه. ولكن عندما ظهر برودسكي الشاب، بقصائده المجردة والفلسفية، استطاع القليل منهم أن يدرك بأن هذا الشاعر كان بمثابة طفل مرحلتنا، وفترة بدايات الستينات، التي ابتدأت، متميزة بظهور أزمة جميع الأفكار والقيم والمثل الاجتماعية والسياسية، وجميع ما اعتقدت الأجيال السابقة بأنها تجسد عدميتها فقد انفجر «البالون» ولم يبق منه سوى خرق مطاطية بالية وممزقة.

عندما يقف الآن أحد الكتاب ويتحدث بشكل جاد عن الاشتراكية وإنجازات الثورة، فإنه لا يثير بذلك سوى الضحك أو يبعث على الضجر، وفي أسوأ الحالات، الغيظ أو حتى مشاعر الازدراء.

فالأجيال الجديدة لم تتمكن من الصفح عن يفجيني إيفتشنكو الشاعر الذي كان يتمتع بشعبية واسعة في الخمسينات والستينات ومدائحه لبناة المركز الهايدرو ـ إلكتروني في منطقة «براتسك».وكذلك الشاعر

أندريه فوزنسكي، الذي كان الشباب يعبدونه، أصبح بشكل علني مادة للهزء والاستخفاف بعد أن كتب قصيدته Longjumeau التي يمتدح فيها لينين. وفي هذه الخلفية السياسية، يتم استرجاع التاريخ أيضًا. فهو ما يزال يستهوي كافة الناس، وفي الحاضر يتم التشكيك بقوانينه. ولم يعد الاهتمام منصبًا إلا على تفاصيله الصغيرة.

إن مراجع برودسكي العديدة إلى روما الأثرية أو الصين القديمة لا علاقة لها بالهم التاريخي. وفي الواقع، أنه قدم تفكك النظم الأيدولوجية منذ بداية الستينات، عندما انهارت جميع الأيدولوجيات «مثل حلم يتلاشى أو ضباب صباحي يتبخر»، فقد أصبحت أشعاره بمثابة أحداث ساخنة.

إن «الأكميست» ـ وهي حركة أدبية روسية ولدت في عام 1912 كرد فعل إزاء الرمزية ـ وروادها من أمثال غوميليوف، آنا أخمدوفا مانلستام، وزينكيفنش ـ كانت لهم مواقف مشابهة. ومما لاشك فيه كان ذلك سببًا ليتخذ منهم النقاد السوفييت مواقف عدائية. وإنهم كانوا أكثر تسامحًا إزاء الرمزية، وربما قد يكون نظامًا مؤذيًا إلا أنه يبقى على أية حال نظامًا. وكما أنه يعتمد على أيديولوجية معينة ـ وهي مختلَفٌ عليها بحد ذاتها ـ فإنها تبدو لهم أقل ابتعادًا عن الماركسية ـ اللينينية مما هي عليه الـ«الأكميست» Acmésime المؤسسة على منطق باطني خاص بها.

وهذا ما يقرب بين عمل برودسكي وعمل آنا أخمدوفا. في الأشعار التي أهداها برودسكي لهذه الشاعرة في عام 1962، يظهر بقوة الرابط الذي يوحد بين اللحظة والأبدية، وبين التقاليد الكلاسيكية والحداثة الاستفزازية، بين الموسيقى والكلام:

إنني لم أرَ، ولن أرى دموعك
لا تستمعي إلى العجلات وضجيجها
أنت تحملين تموج البحر إلى الأشجار
في هذا البلد الذي يخلو من تماثيلك

***

في الغرفة الساخنة، أتذكرها، خالية من الكتب،
بدون عشاق، فأنت عصية على المنال،
يرتكز عنقك على راحة يدك،
وكتابتك المتدلية سوف تتحدث عنا.

***

ستقولين إذن: آه يا إلهي
فهذا الهواء الكثيف ما هو إلا جسد
الأفكار التي سقطت من الأعراق،
ولا إبداع جديد جاء منك.

عندما كان فكتور هيغو العجوز يستمع إلى أشعار بودلير، كان يصرخ قائلًا:

«إنها التفاتة جديدة» في الإيقاعات والاستعارات والأصوات المتضمنة في أشعار برودسكي، نشعر بهذه الالتفاتة الجديدة، لتعلن عن ولادة شاعر حقيقي، وقد أثبتت آنا أخمدوفا بنفسها ذلك.

في ديسمبر / كانون الأول من عام 1963، عندما كان برودسكي

مودعًا في السجن، فقد أهدته الشاعرة إحدى دواوينها الشعرية، قالت فيه: «إلى جوزيف برودسكي الذي تبدو لي أشعاره ساحرة.» وتميزت أخمدوفا بالقسوة والحدة إزاء معاصرين، وكان هذا المديح من طرفها بمثابة شيء لا يمكن تصديقه.

ومن العجيب أنها وضعت كتضمين في قصيدتها «الزهرة الأخيرة» 1962، بيتًا شعريًا من برودسكي الذي أهداه لها: كتابتك المتدلية سوف تتحدث عنا»، ونادرون هم الذين خصتهم بمثل هذا الشرف. (وفي السنوات الأخيرة وضعت في قصائدها تضمينات أساسية من هوراس، بوشكين، إنينسكي، بلوك، تسيتيافا وبودلير) ثمة علاقة بين المعنى العميق لقصيدتها وتضمين برودسكي:

يا إلهي انظر كيف إنني متعبة وضجرة من أن أنبعث، وأموت وأحيا.

خذ كل شيء ولكن من هذه الزهرة إذ من هذه النضارة أنا أسكر من جديد.

وقد خصصت رباعية أخرى لهذا الموضوع في عام 1962 ـ المصير الذي خصص للشعراء الشباب في بداية الستينات:

لن أبكي أبدًا على مصيري

وهل بإمكاني أن أتعامى،

عن إخفاق فضيحة الذهب على جبهة ما تزال هادئة؟

للأسف الشديد إن هذا الأمل لم يتحقق، والجبهة الهادئة سرعان ما أظلمت بالمرارة، والعذاب والخيبة، فقد كتب عليها «فضيحة الذهب والإخفاق» أي اللعنة.

وهكذا وعن طريق هذا التضمين ظهر اسم جوزيف برودسكي لأول مرة في مجلة Novyi Mir، مثلما لو أن الشاعرة أخمدوفا اختارته من بين جميع الشعراء، وبعد مضي أشهر عديدة، ظهر اسمه من جديد، ولكن هذه المرة في صحيفة «لينينغراد ـ المساء».

في تلك اللحظة تعرفت عليه، وقد انبهرت بالطوفان المتدفق لقصائده، التي كان يقرأها ناسياً نفسه بالكامل، وعيناه نصف مغمضتين، وهو يلثغ بالراء، بأنغام تصيب بالصميم وتهز زجاج النوافذ، ولم تكن طريقة إلقائه للشعر مألوفة تمامًا مثل شعره، يتمتع بقوة ويثير الهيجان، كان يقرأ بصوت كأنه ينبعث من آلة أحادية الوتر، نادرًا ما ترفع أو تخفض النغمة، والوقفات بين المقاطع الشعرية كانت تتميز بعجالة طريقة النطق والإلقاء. كان يكمن في ذلك الإلقاء شيء من الرمزية وخصوصًا في نهاية المقاطع الشعرية، كان برودسكي يزيد من سرعة الإيقاع، ويعطي انطباعًا بتغيير الطريقة المخالفة تمامًا للاستخدام المعتاد، وهي الطريقة التي تطبق على جميع الأشياء ولا تقتصر على القراءة فقط.

لقد اشترك جوزيف برودسكي في المجلة الشفاهية الشهرية المعنوية لأول مرة في اللغة الروسية» التي قمت بإدارتها منذ بضعة أعوام في «بيت مايكوفسكي للكتاب». وقد حضر هذه الأمسيات مئات المستمعين، وخصوصًا الشباب، سواء منهم من حضر الأمسيات أو قدم الترجمات، وكانوا ينتمون إلى جميع الأعمال، أساتذة أم مبتدئين. كان الجمهور يتكون من أناس موهوبين، ومتعطشين إلى الاكتشافات الشعرية.

إذا لم يكن إلقاء برودسكي يشبه أي إلقاء آخر، فلقد تميز إلقاؤه الموسيقي الهائج والمتحمس بتأثير سحري خاص.

وقد ألقى قصائد شاعر بولوني اسمه كونستان غالزينسكي:

- مسحورة هي السيارة
- مسحورة هي العربة
- مسحور هو الحصان

وكان بذلك يسحر الجمهور ذاته، بالرغم من لثغة الراء التي لم يكن يجيد لفظها، والتي لم يكن يسيطر على مخارجها مما كانت تثير الابتسام والانشراح.

وقد عرفت بأن برودسكي لم يكن فقط شاعرًا استثنائيًا، موهوبًا، بل كان يتمتع بطاقة نادرة على العمل. ولكي يقوم بترجمة غالزينسكي، أقدم على تعلم اللغة البولونية ـ كما تعلم الانكليزية من أجل أن يقرأ ويترجم الشاعر جون دون وشعراء آخرين ينتمون إلى المدرسة الشعرية الميتافيزيقية. كانت ترجمته للشاعر جون دون John Donne رائعة، متقعرة وحديثة في آن واحد يربط بين الصفات المتناقضة بطريقته.

وبعد مرور ثلاثة قرون ونصف، فإن الوريث الروسي للشاعر الإنكليزي يعبر عن صلته الوثيقة وتجانسه معه في إحدى أجمل قصائده «المديح الكبير لجون دون» 1963:

كل بيت شعري أخ للبيت الآخر

حتى وإن يتمتم: اندفع إلى الأمام قليلًا.

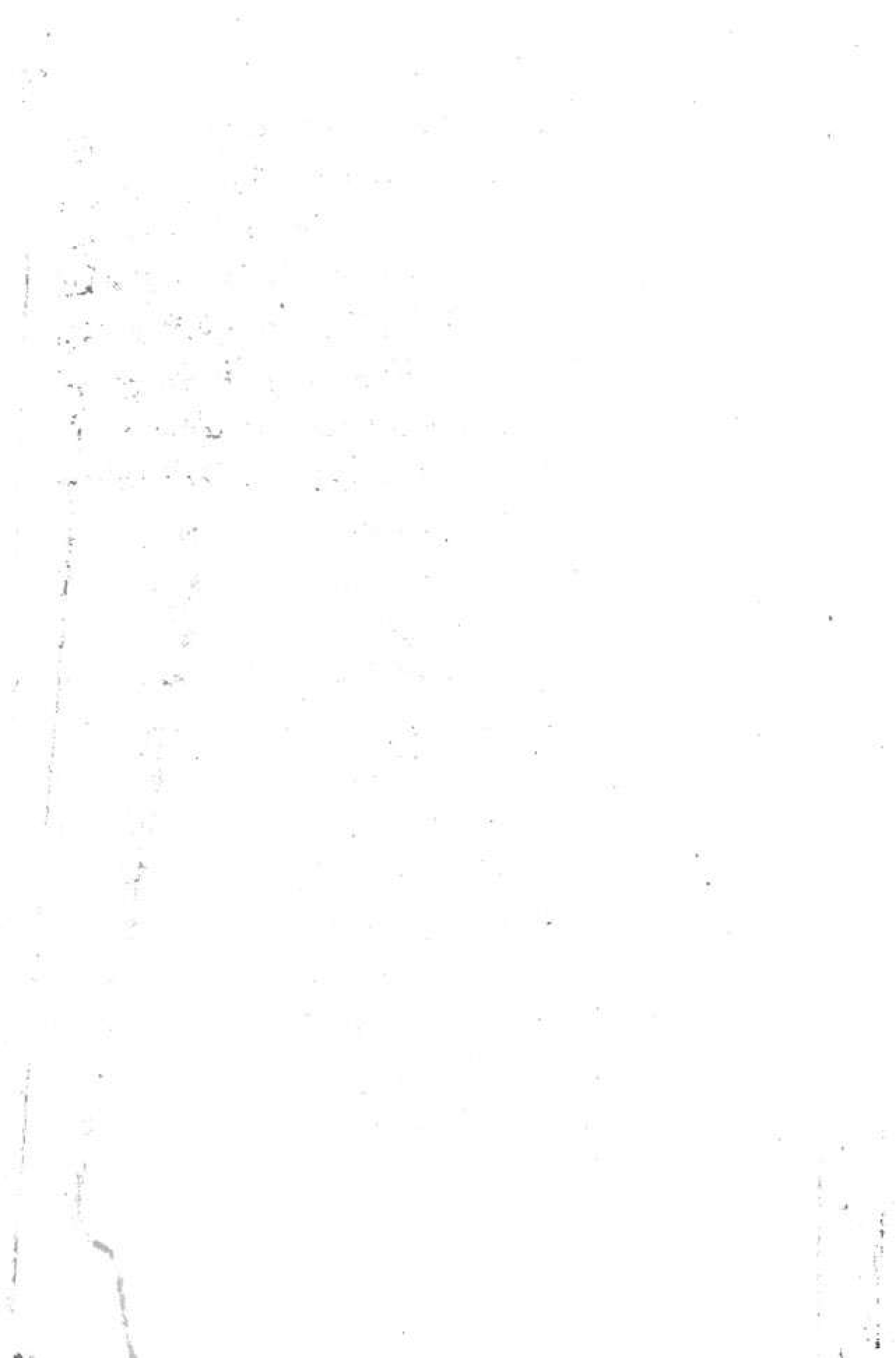
ولكن كل بيت شعري بعيد عن أبواب الجنة.

فقير وكثيف ودقيق ـ ومتماثل أيضًا.

إن برودسكي هو الذي قدم جون دون، هذا الشاعر الإنكليزي الباروكي اللامع في الأدب الروسي. وبفضل جوكوفسكي، أصبح الشعر الروسي يتأثر بالشعر الإنكليزي إلا أن جون دون لم يكن معروفًا (إذا ما استثنينا بعض القصائد التي ترجمها أوسيب رومير) لقد تعلم برودسكي الكثير منه، وخصوصًا تنوع المقاطع الشعرية وتعقيداتها وفي عام 1963، في الوقت الذي ظهرت فيه المقالة المجلجلة في صحيفة «لينينغراد ـ المساء» فإنه سبق له أن أغنى الأدب الروسي بتنوع التراكيب الشعرية التي لم يكن يعرفها، وكذلك جزء «كبير» من انكلترا. وفي اغلب الأحيان، فإن الكتاب الشباب ينغمسون في العمل الإبداعي دون التفكير بخلق الأشكال الجديدة، وبدرجة أقل البحث عن الإنسان في العصور أو البلدان الأخرى. إلا أن برودسكي، الذي كان قد وصل في شبابه المبكر إلى قمة الصفاء في نظم الشعر، فقد كرس نفسه كليًا، وبحماس لعمله. وفي هذا المعنى، لم يكن له أي منافس سواء في جيله او في الأجيال السابقة. وظل، على الدوام، متألقًا ومحلقًا فوق الحقيقة عندما أجاب نيكول زاند، مراسلة صحيفة» اللوموند» في 18 ديسمبر كانون الأول عام 1987 قائلاً: «كانت قراراتي الحقيقية الأولى لماندلستام، وكليبنكوف، وزا بولوتسكي. كنت أرغب في أن أصبح موازيًا لهم، وأواصل عملهم الإبداعي، وفيما بعد، وفي السابعة والعشرين من عمري، انتهيت مع الثقافة الروسية واستدرت إلى الأدب البولوني والتشيكي والفرنسي، ولم أجد أي شيء استثنائي، وتبين لي أن الشعر الانكليزي وحده كان قادرًا على أن يحمل لي ما كنت أبحث عنه وفي عام 1964، كان روبر فروست بالنسبة لي اكتشافًا كبيرًا. وبمواجهة التراجيديا والحقيقة

الواقعة كان هذا الشاعر يجابه الخوف والهلع الوجودي. إذن شعرت بأنني انتهيت مع شعر القارة. وقد تصفحت أشعار جون دون عن طريق الصدفة فقلب حياتي رأسًا على عقب. وقد انكببت على قراءته وكذلك الشعراء القريبين منه كان هؤلاء الشعراء ـ يقصد الشعراء الميتافيزيقيين الإنكليز في القرن السابع عشر. كاتب المقال ـ يحافظون على علاقات أخرى مع العالم، لأنهم يرونه من الخارج في الوقت الذي يضع فيه الأوروبيون، وعلى الخصوص الروس أنفسهم في المركز، سواء كانوا ضحايا أم ممثلين.»

إيفيم إيتكند



الفصل الثامن

حول فريدا فيغدوروفا

إيفيم إيتكند

قالت لي فريدا إنني غصت في كتاب جديد، ولن أهتم بأحد، أقسم على ذلك، باستثناء نادجا ماندلستام، الذي عليّ أن أقدّم له العون في الحصول على غرفة له وبطاقة إقامة، وأترك البقية.

أعلنت لي ذلك في بداية نوفمبر عام 1963، ونشرت صحيفة «لينينغراد المساء» مقالة تحت عنوان: «طفيلي اجتماعي على هامش الأدب»، هكذا بدأت قضية برودسكي، الذي تحوَّل إلى قضية مهمة في حياة فريدا فيغدوروفا، وطريقها نحو الموت والخلود.

لقد تحدّثنا للمرة الأولى عن برودسكي مع الشاعرة آنا أخمتوفا «كيف لا تعرفين شابنا الأول؟ سألتنا بروحية مليئة باللطف والدهشة، وقد وضعت في منقوشة كتابية إحدى قصائدها عنه «كتابتك المجنحة ستحدّث عنا»، وفي طبعة ديوانها لعام 1965 «الهروب من الزمن» حذفت هذا البيت.

وبعد ظهور مقالة لينينغراد المساء، عاش برودسكي فترة من الزمن

بين موسكو وتاروسا، نصحه أصدقاؤه بعدم العودة إلى لينينغراد، لكنه كان عاشقًا، وقد غلب حبه على عقله، وسرعان ما عاد إلى مدينته ألقي عليه القبض، صديقنا إيفيم إيتكند، وهو صديق مقرّب من فريدا أيضًا، قادنا جوزيف برودسكي إلى المنزل، وهي المرة الثانية التي أراه فيها، المرة الأولى قابلته عند رومانسكي، وفجأة انطلق نوع من الدوي من خلف الحاجز، واستمر فترة طويلة، كما لو كنا نجرب، آلة موسيقية، نوعًا من البوق، ومن ثم سمعنا شعرًا، ولكن برودسكي أزعجني كثيرًا في هذا اليوم، فقد ظهر لي بشكل أدبي، كأنه مفتعل، وساخط في إرادته في الإدهاش.

وعندنا، قرأ أيضًا أشعاره، ودردشنا طويلاً، واكتشفنا أنه يتمتع بمعرفة مدهشة للشعر الأنجلو - أمريكي، ووراء المظاهر، القناع الذي يبقى لصيقًا بالجلد - كان يختفي صبي خجول ومليء بروح المرارة. صبي تعيس، تخونه الومضات، ومن ثم يعثر على قناعه، وبالنسبة لي، يصبح غير قابل للاختراق.

انطلقت فريدا في المعركة منذ اليوم الأول، وبعد ظهور المقالة تمامًا، كانت توجد في لينينغراد، وحاولت مرات عديدة الحديث مع العدالة، وكتبت مع تشوكوفسكي، رسالة إلى تشيرتوستان..«كان يتمتع بمنصب مسؤول في جهاز الحزب، وخاطبا المحاكم الأخرى. كم كان يبدو سهلاً أن توقف الأشياء! والحكومة السوفييتية لم تكن تريد سوى المجد، وبالنسبة لفريدا، كان ذلك يحصل على أتم وجه.

لكن المتنفذين الكبار في اتحاد الكتّاب والأدباء والـ«كي. جي.

بي»في لينينغراد شحذوا شكاواهم وكل عرائض التماساتهم ظلت دون إجابة، وفي 18 فبراير عام 1964 صدر الحكم على برودسكي، وللمرة الأولى في حياتها، يرفض ترخيص الصحافة لفريدا، سواء من قبل صحف ومجلات شهيرة مثل «كومسومولسكايا» و«برافدا» و«لوترا» و«تورنايا غازيت» و«أزفيستا».

لذا فإنها حضرت إلى المحكمة بصفة شخص عادي، وبعد الجلسة الثانية للمحاكمة، كتبت إلى تشاكوفسكي، رئيس تحرير «لوتراتورنايا غازيت»:

»الموقر الكسندر بورسوفيتش، أرجو منك أن تقرأ رسالتي هذه باعتناء، في أواسط شهر فبراير، طلبت من مجلة «لوتراتورفايا غازيت أمرًا بالترخيص للذهاب إلى لينينغراد، وقد وافقوا على ذلك، وبشرط سريع ألا أتدخل في قضية الشاعر المترجم الشاب، وطلبت في حالة منعي من الدخول، فيما لو كان باستطاعتي أن أتظاهر أنني مرسلة من قبل مجلة «لوترابورنايا غازيت»من أجل أن يسمحوا لي بدخول القاعة، أجابوني بالسلب، وفي الحقيقة كان عليّ أن أرفض هذه المحكمة لأنهم وجهوا لي إهانة من خلال عدم الثقة بي.. مرة سوء الحظ، لم أفهم ذلك إلا أثناء جلسات المحاكمة، في اللحظة التي قام بها القاضي بمنعي من كتابة الملاحظات، بطريقة نابية، حيث وجدت نفسي في استحالة الرد عليه بأنني مبعوثة من قبل صحيفتي - التي من أجلها عملت سنوات عديدة، ولم يشتك مني أحد، هل يمكن أن نحرم على صحفي حق حضور مثل هذا الحدث، وتسجيل الوقائع ومحاولة توضيح ذلك، ولهذا فإنني أبعث إليكم أمر المحكمة التي لم أوقع عليها، وبالتأكيد أعيد المصاريف المالية إلى الخزانة.

عندما نقرأ اليوم الوثائق التي تتعلّق بهذه القضية، الكلمات العديدة، والواحدة أكثر نباهة وحكمة من الأخرى، كتبت، حتى أنا لا أستطيع أن أفهم كيف حصل كل ذلك، وكل شيء يبدو واضحًا ومختلفًا

.. من المستحيل أن تتخيّل أحدًا أكثر طبيعية وأكثر معقولية في الجلسة الأولى، اتخذ القاضي قرارًا بإخضاع برودسكي إلى خبير نفسي.

في السادسة مساء اتصلنا بفريدا من موسكو، لم تكن قادرة على لفظ كلمة، تشهق وتنتحب عبر الهاتف، وعلمنا مؤخرًا ما الذي جرى، وبما أن فريدا لم تكن معتادة على البكاء، ظهر ذلك لنا غريبًا ومخيفًا.

بعد الجلسة الأولى عادت فريدا إلى موسكو، ليف كوبيليف، كاتب ومختص بالأدب الألماني وزوج ريسا أولوفا.. ذهب لكي يجلبها من محطة القطار، ورافقها إلى منزل ليويا كورنيينفنا، وكانت قد استعادت أنفاسها، وبدأت تتكلّم كما عهدنا بها:

تقول كيف نساعد هذا الصبي؟ ومن نخاطب؟ اتخذنا قرارًا بإرسال برقية إلى تولستيكوف، سكرتير لجنة الحزب في لينينغراد، وهذا التلغراف مثله مثل كثير ظل دون إجابة.

وقضية برودسكي لا تتقدم، وسنذهب لرؤية فريدا في تاوسا حيث أمضينا يومين حزينين (...).

بينما ليف كان يسبح في النهر الصغير، بقينا، فريدا وأنا جالسين على الجرف، النهر، الغابة، وكل ذلك لا يوجد الآن، لم نكن قادرين على الاستمتاع بجمال تاروسا «لا أرغب في التفكير في كل هذه العذابات

التي تنتظرنا، وكل تلك الأشياء العزيزة على قلوبنا كانت تشيخ، ليس بمستطاع الإنسان معرفة يوم وفاته، وهذه على الأقل فكرة ذكية»، وبدأت تعدد جميع الأصدقاء الذين تجاوزت أعمارهم السبعين، وهي التي فارقت الحياة قبلهم.

غادرنا تاروسا بقلوب حزينة.

في خريف1964 كان المسؤولون عن اتحاد الكتّاب والأدباء في موسكو يحضرون لـ«قضية» فيغودوروفا، ودعوا الناس، وبذلوا جهودهم في البحث عن شهود عيان، وممن يتحلى بسمعة طيبة، حتى يكون الاتهام أكثر إقناعًا، فريدا لم تكن تعبأ كثيراً بذلك، حتى إنها أصيبت بإحباط حين لم يحدث شيء.. قلت لها يومًا مازحًا: «أنت مزهوة ومغترة.. لأنك تريدين أن تصبحي مشهورة».

قبل قضية برودسكي، كانت فريدا فيغدوروفا تتعايش مع السلطة بنوع من المسالمة إلى حدّ ما (...) بهذا المعنى، إن سير المحاكمة وأحكام المحكمة شكلت لها منعطفًا مهمًا، فلم تعد لها تلك العلاقات مع جميع المحيطين بها، وحتى مع ذاتها (...).

فقد وجدت نفسها وسط مشكلات أخلاقية متعدّدة وجديدة، وإلى حد ما لا حل لها، وأصبح كل فعل من أفعالها يحدث دويًا، دون أن تكون قادرة على تجنبها، على الآخرين، وعلى المقرّبين منها، وعلى أفراد عائلتها.

لم تكن قادرة، ولم تكن حتى راغبة في اختيار المنفى والتغرّب، ولم تكن قادرة على أن تدخل ضمن أي نوع من أنواع «السرية» حتى الأدبية

منها، ولم تكن قادرة على الكتابة بشكل تترك معه مخطوطاتها تستقر في الأدراج، وكانت تنغلق على نفسها في منزلها، بشكل مضاعف، تخلّت عن صحيفتها، وعن أي فعل «وقد لاحظنا بعض الإشارات في الأشهر الأخيرة».. فاجأها الموت فرحبت به، كانت تجد نفسها مأخوذة بهذه الخيوط المتشابكة من المشكلات غير القابلة للحل.

كم مرة ونحن نحلم بانعتاق برودسكي في السجن؟ كل شيء كان يجري بطريقة مألوفة جدًا، في بداية ديسمبر 1965، وبعد شهر من وفاة فريدا اتصل بي صديق ليديا كورنييفا، موظف في المحكمة، ليقول لي إنه تم توقيع قرار الإفراج عن برودسكي، سقطنا، ليديا وأنا، في أحضان بعضنا البعض، إذ فكرنا بحزن وتعاسة في فريدا التي لم تعش لهذه اللحظة، ومن ثم ليف وأنا كنا في عطلة في سوخومي، أخبرونا بالانتظار لثلاثة أسابيع أخرى: سواء تم ذلك عن قصد أو عن طريق الخطأ، لكن قرار المحكمة بدلاً من أن يذهب إلى آرخانجيلسك ـ تم إرساله إلى ـ أستراخان ـ حيث بحثنا عن برودسكي، الطفيلي دون جدوى.

وفي نهاية المطاف، وصل.. «لم يكن عليّ أن أحضر له وجبة البيض» كتبت لنا ليديا كورنييفتا.

رايسا أورلوفا «فريدا فيغدوروفا، كما عرفتها» (نص كتب في عام 1966، ولم ينشر في القرب إلا في عام 1983 في مذكرات زمن مازال مستمرًا ـ آرديس ـ الولايات المتحدة).

ليديا تشوكوفسكايا

كتبت ليديا تشوكوفسكايا كتابًا بأكمله تحت عنوان «في ذكرى فريدا» الذي لم ير النور حتى يومنا هذا.

أختها التي تكبرها بسبعة أعوام، كانت ليديا تشوكوفسكايا من أقرب الأصدقاء لفريدا فيغدوروفا، التي تهتم بها بحنان، وتبذل كل جهودها من أجل مساعدة هذه المرأة المريضة المحرومة من كل إحساس عملي.. كانت تثق بها وتقدّر عاليًا حزم مبادئها التي لا تحيد عنها، وفروقها الفنية، في مذكراتها، تتحدّث ليديا تشوكوفسكايا كثيرًا عن قضية برودسكي «حيث كرّست فريدا طاقة كبيرة لدى كل أصدقائها ـ ومن ضمنهم أنا ـ شاركت يوماً بعد يوم، طيلة عام كامل».

ليديا تشوكوفسكايا إذن في موقع يؤهلها لكي تحكم على هذه القضية التي لعبت دورًا مهمًا في تلك الحقبة.

إيفيم إيتكند

ليديا تشوكوفسكايا: نداء إلى الأحياء

الكفاح الذي تقوده من أجل برودسكي يجعلنا نعيش كما لو كنا على ميزان: نترنح بين ارتفاع وانخفاض، عندما نكون في الأعلى نهبط فجأة: حيث أعلن أنه سيطلق سراح برودسكي في الأيام المقبلة «كنا سذج حتى نعتقد بذلك إلى درجة أن نخبر به المعني الرئيسي به»، وتنطلق الشائعات بأن رئيس الحكومة قال «إن إدانة الحكم كانت خفيفة، فلم يكن من المفترض أن نحكم عليه بالنفي خمسة أعوام، بل عشرة أعوام من السجن».. هذه الأصداء كان لها تأثير ضار على فريدا، كانت تحب أولئك الذين تدافع عنهم، لكن بالنسبة لبرودسكي فإنها تبنته ـ حسب علمها دون أن تطلب منه شيئًا ـ إنه احتل مكانة في قلبها، حتى يمكنني أن أقول بالضبط إلى أي حد كان هذا التبني: في الجلسة الأولى لهذه المحاكمة.

في رسالة كتبتها لي في 22 فبراير من عام 1964 من أجل أن تقدّم عريضة الالتماس إلى المدعي العام في الاتحاد السوفييتي، كتبت فريدا لي قائلة: «والآن ما الذي سيحصل؟ مهما تكن النتائج، سأراه هناك، واقفًا في قفصه الخشبي مع حرّاسه. ربما ستسير الأمور على ما يرام، سيأخذ الطريق وسيصبح شاعرًا كبيرًا، لا يهم ذلك، لا أنسى أبدًا، حالته النفسية، في ذلك اليوم، حائر وبائس ومذهول وساخر، ومليء بالتحدي».

«ولكن كما يبدو أنه لن يمتلك متسعًا من الوقت لكي يصبح في أي مقام كان، سوف يعملون على كسره وتهديمه، يجب على الشعراء أن يتمتعوا بأعصاب قوية مثل الجبال، صحة فولاذية، وهو يبدو مريضًا، لن يتحمل الاختبارات التي تنتظره».

«لماذا أكتب لك كل ذلك؟ يجب أن أتحدّث لك عن أشياء مريحة، وهكذا من جديد أتحدّث عن مشكلاتي «كانت مريضة في تلك الفترة وتعاني من نزيف في شبكية العين».

نعم، هكذا ودائمًا كانت تتحدّث عن مشكلاتها، وألم برودسكي كان ألمها، لا يبرحها ليلاً ولا نهارًا، وبلا وعي كانت تطلب منا ـ ليس فقط الكلمات والدموع، بل أكثر جذرية مثل آلة كمان تطلق لحنها في الأوركسترا، أن نشعر بهذا الألم دون مهلة أو مهادنة، أن نركز حولها، وكتبت لي عن ماليفكا التي ذهبت إلى هناك عن قصد، لكن لم تكن حالتها تؤهلها لا للتزحلق ولا للعمل، حتى إن صمت الغابة لم يكن يسعفها، كانت تراه في كل مكان حولها، في قفصه الخشبي، تحت حراسة مشددة، صبيًا قويًا وعاجزًا...

كانت تغوص في عالم أشعاره وترجماته، وتفكر في إبداعه، أخرجت، والله وحده يعلم، صورة له، وسألت أصدقاءها وحصلت منهم على السمات الجديرة بالثناء والتكريم.. وثمة فرد سرد لي أنها قبل فترة من إلقاء القبض عليه، استدعته لجنة الحزب في الكومسمول، وحاولت أن «تثقفه»من خلال طرح أسئلة عليه مثل «من هم الشعراء المفضّلون لديك؟»، سأله سكرتير الكومسمول.. «أخمتوفا، تسيفيفا، ماندستام، باسترناك». أجاب برودسكي، وعلى أية حال، لم يكن من الصعب عليه أن يقول: مايكوفسكي، تغادوفسكي.. لاحظت فريدا حتى لا يبحث عن المشكلات، وكانت القضية تقف عند هذا الحد، لكنه قال الحقيقة، لماذا لا يقدر هؤلاء المسؤولون عن «التثقيف» صفته النادرة وإخلاصه؟

بعد إصدار الحكم، عندما طبق قرار الحكم المرعب على برودسكي، وتم نفيه إلى كونوشا، قرّرنا أن نبعث له، كل من جانبه برقية من أجل محاولة تشجيعه على الصمود، فريدا طلبت مني كيف أدبّج برقيتي، وأجبتها في تردّد «ابعثي قائمة الكتب..» ربما قد يمضي الشتاء هناك» كيف؟ كتبت فريدا، ربما يوحي له ذلك بأنه سيبقى مدة طويلة هناك. آنذاك لا يبقى له سوى أن يقرأ، ونبعث له مزيدًا من الكتب. وعدتها أن أفكر في كتابة نص آخر غير ذلك، وعندما قرأت على أسماعها ما كتبت، شيئًا من هذا النوع «لا تتوقّف عن فضح هذا الافتراء»، بدأت فريدا تقفز من الفرح، سعيدة ومعجبة كما لو أنني كنت أبدع أمام عينيها سونيتة جديدة من سونيتات شكسبير. قالت لي بسذاجة: لم أكن أفكر أبدًا، أنك رائعة إلى هذه الدرجة، إنني أحبك، وأحب أن أعرف كم تستغرق البرقية من الوقت للوصول إلى هناك، وهل استلمها الآن يا تُرى؟ ولأنها علمت

أن برودسكي ليس لديه آلة كاتبة أرسلت له آلتها الكاتبة الشخصية، وأخبرتني أن لديها آلة كاتبة إضافية أخرى، ولم يحصل إلا بعد موتها أن أخبرتني غاليا أن ذلك لم يكن صحيحًا، فلم تكن تمتلك آلة كاتبة إضافية غير التي أهدتها إياها بنتاها غاليا وساشا بمناسبة عيد ميلادها من أول راتب تحصلان عليه.

نرى إلى أي حدّ كانت فريدا تعاني من فشل جميع المحاولات، أحصي لها مئات الأسباب نأمل، وقلت لها فيما بعد: فريدا، لو أطلق سراح جوزيف أم لا، فأنت قمت بالكثير من خلال تدوين محاكمته، وحققت وثيقة استثنائية، ليس فقط بالنسبة له أو من أجل إطلاق سراحه.. أنت أولى كتّابنا التي عملت على إسماع صوتك إلى العالم بأكمله، وكل الذين مازالوا على قيد الحياة.. هذا نداء إلى الأحياء.

أطلق سراح برودسكي بعد شهر ونصف الشهر من وفاة فريدا، وصل عندي، اتصلنا معًا بآنا آخماتوفا وعائلته، وأخذت الهاتف وضربت رقم: AD 142.97

- ساشا، جوزيف أطلق سراحه، عندما رفعت السماعة.

نحن نحبكما.. تعذّر التواصل، فقد استعصى على شفاهنا الكلام، كنت أرى ساشا كأن جهاز التليفون تحوّل إلى شاشة تلفزيون: أهداب عينيها و(نسوها:؟).. الأمريكية فارغة.. فكرت: يجب أن أذهب إلى قبرها وأتمتم.

الفصل التاسع

قصيدة شارل دوبزينسكي

رسالة مفتوحة إلى قاضي سوفييتي ظهرت هذه القصيدة في أكتوبر 1964 في مجلة «الفعل الشعري»، ومؤلفها شارل دوبزينسكي، وهو شاعر فرنسي ومدير مجلة (أوروبا)، كان الشيوعي الوحيد الذي وقف في تلك الفترة ضد هذه المحاكمة المثيرة للسخرية.. النظام يستتب على لينينغراد/ أيها القاضي الرفيق/ أنتم صرعتم الوحش/ وهزمتهم من بين جدرانكم الكسول والمتطفل/ العدو العام/ الشاعر/ من هو الشاعر بنظركم، أيها القاضي الرفيق/ وإلاّ ـــــ/ من يحمل المجتمع في عنقه مثل حجرة؟ إنني لا أعرف جوزيف برودسكي، أيها الرفيق القاضي/ ماذا يشبه؟/ حلية مزخرفة في منصة المجرمين/ هل له شعر أشقر مثل شمس غاربة/ وعيون زرقاء مثل ـ نيفا ـ بدون دموع؟/ لنقرأ في نظراته/ جنحة الشعر؟/ هل له رأس مجنون وقلب مضطرب/ من بين الذين يمضون لياليهم في غاليريهات اللغة/ (فحامو الكلمات بوجه أسود/ من سخام المجهول؟/ ربما لهم لون أصهب/ العاصفة من لا يعرف أنها تحمل البرق/ وهل للغيمة فكرة كهربائية؟/ ربما أنها رديئة جداً بكل بساطة، لا يهم ذلك/ وهل تعتقد حقًا أن تكفي قصيدة رديئة/ لأن

تشكّل تهديدًا للدولة؟/ وإذا فكرت في أن صرخة مولودة/ الكل دقق في صلصال القلب/ خطر على الأيديولوجيا/ ما ترتابون منه في الشعب، أيها الرفيق/ أنكم تخافون من الشباب/ [كم من القصائد الرديئة كُتبت في تمجيد الاشتراكية وأنتم لم تحرّكوا ساكناً]/ لا أدافع عن جوزيف برودسكي/ ربما يكون شاعرًا دون موهبة/ ولكن هل القانون الذي تشرعونه قادر على تقييم الموهبة؟/ نقول عنه مترجم ماهر/ وهذا شيء ثمين، أيها الرفيق القاضي/ حيث أن مترجمًا جيدًا للقصائد/ ينسج من لغة إلى أخرى خيط ـ أريان ـ للموسيقى السريّة/ وأصوات بدونه تضيع في الليل/ هل تعلم، أيها الرفيق القاضي، هل تعرف ذلك؟/ إنني لا أدافع عن هذا الذي تعتبرونه صعلوكًا سوقيًا، ولكن يبدو لي أنه من المرعب/ في هذا البلد، بلدكم، حيث نحترم الإنسان/ حيث نفتح له طريق السعادة/ في هذا البلد حيث الشعر يتحدّث للجميع بصوت عالٍ لهذه الدرجة/

حيث شاعر، الطفل الرهيب، صعلوك يغني مثل يسنين/ يوضع في منصة المجرمين/ ربما أنه رجل مسكين/ يبدو أنه تعيس وتعاسته تمسني/ لا أستطيع أن أشكّك في إخلاصه/ هل بحثتم حقًا عن جذور الاضطراب/ ماذا نفعل لشاب ينتفض/ ضد النظام السائد حتى لو كان هذا النظام عادلاً؟/ لكن أنت، أيها الرفيق القاضي/ ما الذي يدهشك من موارده المالية المتواضعة/ [من أين يعيش، وفيما لو كان يعمل]؟/ أنت لا تفهم، ها، لا أنت لا تفهم/ كيف نستطيع أن نضحي بالخبز اليومي/ من أجل حب الشعر/ أنت لا تفهم أيها القاضي فتظاهر بالأخلاقية/ لنترك إنتاج الخيرات المادية/ من أجل الذهاب والبحث

عن زهرة منسية/ زهرة غير مفيدة من أجل عطرها المميت، في موت
الأحاسيس والكلمات، قاض اشتراكي غريب في حقيقة الأمر/ من
يقابل الخبز بالزهور/ والحلم بالحقيقة/ والشعر بالعمل/ بالتأكيد
الشعر يشبع خبزًا/ الشعر عديم الفائدة لمن لا يعرف اكتشافه/ إنه جوهر
وجودنا/ الشعر فضيحة/ عندما يكون رفضًا/ وأن يمتثل للقوانين،
وعلى الخصوص عندما يعبّر عن ثورة/ وهل تعتقد أن العالم كامل
حيث تحكمونه/ وكل الثورات تلغى/ لكل اضطراب القلب وكل
تمرّد الأحاسيس/ مستحيل ذلك مرة واحدة وإلى الأبد؟/ هل تعتقد
أنك أنشأت، أيها الرفيق القاضي/ الانسجام المطلق للإنسان ومحيطه/
الإنسان ووعيه/ بعد عشرين عامًا من الستالينية؟/ أنت، أيها الرفيق
القاضي، أنت/ بالثقل القاطع لسلطتك/ السوط الدامي للفانتازيا/
وإلغاء القوانين الدوغمائية الجاهزة للعرض/ أنت هو المسؤول/
عن الغضب والاتساع/ أنت أيها الرفيق القاضي، أنت/ حيث أناس
مثلك وبكلمات مشابهة/ وحقائق أسست كأنها مآثر/ ذات الإيمان
البارد/ الذي صب إسمنت تمثال للطاغية/ في إسمنت التفاهة/ في
الطاعة السلبية/ أنت، أنت الذي كذب، أنت الذي أمسك/ من دون أن
تعرف ربما وهذا ما يزيد التعاسة/ مرآة قضية عادلة/ لا أرى جوزيف
برودسكي/ يقال إنه حرّ اليوم/ لأن الظلم ليس له إلا زمن واحد/ في
هذا البلد الأول في التاريخ/ الشعب يصلي وبيده مفاتيح مصيره، لكن
التفاهة مرض/ لا نشفى منها دون ألم/ الاشتراكية لم تخترع المصل
بعد/ في لينينغراد تتهم شاعرًا/ إنني تعيس وتعاسته تمسني/ من التعاسة
أن تكون شاعرًا مبتدئًا ووحيدًا/ لا أحد يعترف بما يريد أن يصبح/ عامل

الكلمات/ صائغ الأحلام، من لا يحق له أن يتقاضى راتبًا/ إذا لم تكن أحلامه أحلام الجميع/ [ولكن أيها الرفيق القاضي، إذا هرست السمك في القواقع] كيف تعرف إذا كان الدجاج/ سيعطي بيضًا من ذهب؟]/ لا أدافع عن الشاعر/ بل أدافع عن الشعر/ الذي أهنته بشدة، أيها الرفيق القاضي في شخص شاب تعيس/ الذي يعقد فيه كل قوى روحه، ووجد فيه سببًا للحياة/ إنني أدافع عن الشعر أيها الرفيق القاضي/ تهين الشعر بالقصيدة السيئة/ الشعر الذي حكمت عليه/ سوف يزدهر في مكان آخر/ لأنه لا يتحدّث بلغتك/ الاجتماعية والإدارية/ أنت حكمت عليه بالأشغال الشاقة/ لأنه ليس ضروريًا في نظرك/ ولأنه لا يدخل/ في البيانات الرسمية للإنتاج، وأنه لا يسجل بالأطنان في الإحصائيات/ لأنه لم يصنع ضمن مقياسك/ هل لديك فكرة بتأسيس حياة ما/ على الرمل في البحث عن الكلمات؟/ آه، أكان ضروريًا حقًا أيها الرفيق القاضي/ جرّ رجل أمام المحاكم السوفييتية/ لأنه يمارس مهنة كتابة القصائد؟/ أكان ضروريًا حقًا أيها الرفيق القاضي/ إهانته وفضحه علنًا، لأن صحيفة وشت أنه ـ أوسيف ـ ؟!/

وعندما تقرأ قصائده في المحكمة فهو ينكر أن يكون كتبها بيده]/ أنا لا أعرف أشعاره/ تقولون إنها إباحية وفضائحية/ وأنت بلا شك أيها الرفيق القاضي البرجوازي/ قمت بمحاكمة شارل بودلير/ وتدين فيرلين ورامبو/ وتحقّر لوتريامون/ بين أحكامكم والقصيدة/ يمتد بحر من الدماء/ دماء يسنين يختلط بدماء مايكوفسكي/ والشعراء لا يموتون للأسباب ذاتها./ ولكن جميعهم يموتون لأنهم أحبوا كثيرًا/ الحياة والشعر./ وأيضًا أيها الرفيق القاضي/ إنني أطعن في أحكامك./

جوزيف برودسكي ليس مايكوفسكي/ وأنت لست سالمون/ عدالتك لها آذان/ أنت الحي الغريب/ من عمر الـPaléalithique/ حاكم يصلح لمتحف الشمع - غريفان/ على الاشتراكية/ مزيد من الشعر أكثر من الفحم/ ومزيد من الحب والعدالة/ الصلب والفولاذ والحبوب والزروع/ الفهم خاصية الإنسان/ تبرير الحكم، لكن أنت، أنت لا تفهم ذلك/ لا أدافع عن المتهم/ في هذه المحاكمة السخيفة/ [هل فعلت من هذه المحاكمة العلنية/ من المؤلف كتيبًا عنصريًا حديثًا؟]/ أنا أدافع عن الشعر/ الذي أهنته باسم الإيمان/ وماذا يعني لك أن يكون شاعر عاطلاً/ باسم الشعر وباسم العدالة/ بدونهما تكون الاشتراكية رسالة ميتة/ إنني أطعن بك أيها الرفيق القاضي.

ملحق مضاف من المترجم

برودسكي:
«إذا اعتقد الكاتب أنه يستحق جائزة نوبل فهذه كارثة»

الشاعر الروسي الأصل، والأمريكي الجنسية، جوزيف برودسكي حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1978، لكنه كان يدرك تمامًا أن هذه الجائزة تحكمها لعبة المصادفة و«الحظ» .

لقد غادر الشاعر موطنه الأصلي عام 1972، طردته السلطات السوفييتية آنذاك، وكان يعرف بأن إحساس الفردية طاغ على حياته، بحيث لم يتمكن من العيش في روسيا، وهكذا عاش حياة الغولاك والمصحات النفسية، لكنه لم يكن يسعى إلى أن يكون ضحية ولا منشقًا ولا حتى شاعرًا «ملتزمًا»، والالتزام الوحيد، لجوزيف برودسكي «المولود في 24 مايو عام 1940 في لينغراد» هو الشعر، يمارس كتاباته وعذاباته من أجل الدفاع عن الإنسان، وبعد مغادرته موطنه الأصلي كتب رسالة إلى بريجينيف يقول فيها: «إنني مقتنع بأنني عائد ذات يوم، فإذا لم يتحقّق ذلك ماديًا وفعليًا، فإنه سيتحقّق على الورق الأبيض».

ومنذ ذلك الحين يعيش هذا الشاعر في الولايات المتحدة بعد أن حصل على جنسيها، وعلى الرغم من انهيار النظام السوفييتي، إلا أنه لا

يخطّط للعودة إلى مدينة سان بطرسبورغ، معللاً ذلك بسبب جوهري: «إن الذين سلكوا الدرب معي قد ماتوا أو رحلوا، إذ لا ندخل في النهر مرتين، حتى لو كان هذا النهر يدعى نهر «النيفا»، لكن يظل الشاعر يراقب ما يحدث في روسيا وبولونيا..» رئيس مجلة تحرير المجلة البولونية GAZEBA WYBORCZA أجرى هذا الحوار الشيق الذي قمنا بترجمته إلى العربية.

- قرأت مقالة في مجلة «لتراتورنايا» حيث وضعوك في موازاة سولجنتسين، فأنتما حصلتما على جائزة نوبل لكنكما سلكتما طريقين مختلفين: سولجنتسين تواصل مع اللغة الروسية، فيما تخلى برودسكي عنها لصالح اللغة الإنجليزية..

* أنت تعرف كم تعتمد جائزة نوبل على لعبة المصادفة، وأحيانًا لا تعني شيئًا، وإذا اعتقد الكاتب أنه يستحقها فهذه كارثة، لكنني أفهم أهمية جائزة نوبل لأولئك الذين يكتبون في مجلة (LITERATOURNAIA). ما الذي كان يميّز سولجنتسين في سنوات الستينات والسبعينات؟ لم يكن بالتأكيد اللغة ولا الشكل، بل محتوى رواياته وقصصه، ولكي يصبح قيمة معترفًا بها، فهم ضرورة العثور على طريقته الأدبية الخاصة، إذًا فإنه وجد حلولاً لذلك، وبدأ يستخدم مفردات قاموسDAL (وهو قاموس يتكوّن من أربعة أجزاء ظهرت بين أعوام 1863 و1866 منعته السلطات السوفييتية من التداول، والأسوأ من ذلك، أنه قام من أجل كتابة «الدائرة الحمراء» بتقليد أو بالاستعارة من الروائي الأمريكي دوسي باسوس الذي كان مترجمًا إلى اللغة الروسية. إنني أكتب المقالات وقطع النثر باللغة الإنجليزية، لكنني لا أكتب بها أشعاري مطلقًا، كنت أتمكن

بالتأكيد من الكتابة أولاً باللغة الروسية، ومن ثم أقوم بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، لكنني من الصعوبة أن أحدّد مواعيد التسليم ذلك أن معظم مقالاتي ومحاضراتي قائمة على الطلب، عندما قمت في أعوام 1975 ـ 1976 بتأليف مقالة حول الشاعر اليوناني قسطنطين كفافي (1863 ـ 1933)، كتبتها بالإنجليزية لأسباب عملية صرفة، وبعد ذلك بدأت أتذوق ذلك وأردت أن أكتب أفضل من ذلك، ثم إنني رجل فرداني، وربما لهذا السبب، يصعب علي أن أجد ذاتي في لغة واحدة، وفردانيتي قد لا تجد لها كل هذا الحضور.. والقراء.

ـ أرغب في أن تتحدّث عن روسيا، وتجربتك ذات الأبعاد الثلاثة من كونك تمثّل الأنتلجنسيا اليهودية، شاعر روسي، ويهودي روسي؟

* إنني لا أعتبر نفسي ممثلاً أو عضوًا في الأنتلجنسيا الروسية، إنه مصطلح اصطنع في القرن التاسع عشر، وبعد عام 1979 لم يعد لهذا المصطلح أي معنى بالنسبة لي، إنهم عبارة عن أناس، ذوي لحى صغيرة، يحملون منظارًا مزدوجًا، ويحبون الشعب.

أتذكر في الوقت الذي بدأت فيه التفكير بطريقة شخصية في الكتابة: لا أنا ولا زملائي كنا نفكر في أننا نشكّل جزءًا من الأنتلجنسيا، ولسبب بسيط أننا لم نكن نناقش شؤون روسيا أو مستقبلها. كنا بالأحرى نهتم بالحديث عن بيت وفولكر.. وأعرف أنه يوجد اليوم طبقة كاملة أو أصناف من الأفراد ينشغلون بالتفكير في هذهِ الإشكالية: ما الذي سيحدث لروسيا؟ وماذا سيكون مصيرها؟ وما هو دورها إلخ؟ لكن بالنسبة لي إن كل ذلك توقف مع تشاداييف (فيلسوف يدعو إلى إضفاء الحياة

الغربية على روسيا)، وقد عرف روسيا بأنها فراغ كبير في حياة الإنسانية، لكننا عندما نتحدّث بجدية، ينبغي أن أقول إنه من المجدي رفض بعض المقولات الفكرية ـ روسيا، الغرب، الشرق، فعندما نتحدّث عن البلدان والأمم والتاريخ والثقافات، فإننا نقع في مطبات التعميم بشكل تلقائي، ونحن بذلك نضيع ما هو جوهري ومهم بالفعل، أي نضيع الإنسان. من له الحق في أن يطلق هذيانه حول 200 مليون إنسان؟ وهل يحق لنا أن ندلي بأفكارنا حول 200 مليون إنسان؟

ـ أتذكّر فيلمًا سوفييتيًا يتهم فيه أحد البلاشفة شخصيًا بأنه ينتمي إلى الأنتلجنسيا.. تخيّل كان هناك هذا القرار من الاحتقار..

* ينبغي أن تعلم أنني قد أكون واحدًا من الأنتلجنسيا.. في أعماقي نوع من القدم، وأدب اللامعقول، ولد وحشيًا، أتفهم، إنني لا أنتمي إلى الأنتلجنسيا، وكون الإنسان مثقفًا (أي عضوًا في الأنتلجنسيا) صفة إنسانية، وليس صفة وطنية أو طبقية.

ـ من في رأيك يطرح التساؤلات الجوهرية حول الوضع الإنساني إذا لم تكن الأنتلجنسيا؟

* الشعر الروسي يطرح هذه التساؤلات بشكل أو بآخر، كان ذلك شعر النبلاء، وليس شعر الأنتلجنسيا، إذا ما أهين النبيل يستفزك إلى المنازلة، أما المثقف فيكتب مقالاً.

ـ ما يجذبني نحو الأدب الروسي ـ وكما تؤكده بنفسك ـ هو الإحساس العميق بالاستقلالية.

* أعرف أن خلف هذا السؤال تكمن رغبة أن شيئًا ما سينقذ روسيا في المستقبل، لكن في الأوضاع الحالية للمجتمع الروسي فهذا ضرب من المستحيل.

ـ بفضل مقالاتك ومقالات سينيافسكي وأماليريك فهمت أنه يمكن التكلم بلغة روسية تختلف عن لغة الاجتماعات الحزبية، ويمكن التعبير بفخر وكرامة، ولهذا السبب فإنني أكن احترامًا كبيرًا إلى الأنتلجنسيا الروسية، هذا المصطلح الذي لا تحبه كثيرًا.

* كنت على الدوام أرغب أن أعبّر بمساعدة الكلمات البسيطة، وكنت أريد أن أعرف فيما لو كنت شجاعًا أو جبانًا، سيئًا أو جيدًا، شريفًا أم لا نحو النساء.

ـ أليست هذه أسئلة نموذجية للـ«مثقف»؟

* أبدًا.. إنها أسئلة يطرحها كل من له أدنى وعي ويحاسب ذاته، وهذا لا يعني الانتماء إلى الأنتلجنسيا، وإلا فإن البشرية بأكملها تشكّل جزءًا منها، وهذا يعني أن كل شخص يعاني الشعور بالذنب يشكّل جزءًا من هذه الأنتلجنسيا أيضًا.

ـ من أين تأتي ظاهرة تشاداييف، الرجل الذي أطلق التحدي ضد القوالب الفكرية الروسية الجاهزة، وكشف عن أكاذيب الحياة الرسمية؟

* أول كتاب قرأته لتشادييف هو مراسلاته مع بوشكين، كنت آنذاك في الثانية والعشرين من عمري، وما كان يقوله بهرني، كان تشاداييف رجلاً نبيلاً ومثقفًا، ويعرف الخارج، وله إحساس بالشرف، في بداية

القرن التاسع عشر أصبح من الواضح أن مجتمعنا كان منظمًا بطريقة جنونية ـ هذيانية ـ كان بالأحرى عبارة عن حديقة حيوانات، ونحن نشذ عن العالم المتحضر ونتنافر معه. وما كنا نراه في الشارع لا يشبه ما كنا نقرأه في الكتب، وكان الروس يشعرون بأنهم لا يمتون بصلة إلى بعضهم، أتذكر تفاصيل تلك الرحلة: أجلس وأكتب قصيدة، وأرى الناس ـ قرائي المحتملين ـ وأفهم فجأة أنني غريب مطلق، وسواء كانت قصيدة جادة أو قصيدة حول الكرنب المزروع في الحديقة، لا يهم ذلك، شعرت بهذا الاختلاف الرهيب بين الكتابة والحياة، وعندما وصلت إلى الولايات المتحدة أصبح كل شيء طبيعيًا وبسيطًا، إنني رجل غريب حقًا، وكل شيء طبيعي، لا أعرف من أين ظهر تشاداييف، ولست متأكدًا من أنه ينبغي أن يطرح هذا النوع من التساؤلات.

ـ أشك في أنك لا تطرح هذا النوع من الأسئلة، ولا تفكر في مصير بوشكين والقيصرية، والديسمبريين (أعضاء حركة الانتفاضة التحررية التي ثارت في سان بطرسبورغ ضد القيصر نيقولا الأول في ديسمبر عام 1825).

* عند الحديث عن بوشكين، ننسى أنه كان نبيلاً، وكان مرتبطًا بالقيصر في قسم الإخلاص والوفاء، ولهذا السبب لم يكن قادرًا على الثورة، اعتاد الروسي أن يعتبر وجوده مثل سلسلة تجارب تحكمها العناية الإلهية. إن المهمة الأولية للثقافة والفكر الفلسفي الروسيين تخضع إلى هذا الهدف البسيط جدًا: هو تبرير وجوده الخاص، وذلك على صعيد ميتافيزيقي، بمعنى التجاوز، عندما توضع وراء القضبان، فإنك تدرك أن موظفي الـ «كي. جي. بي» مثل أدوات غبية، لكنها أدوات العناية الإلهية

أيضًا. السلطة هي أداة، غير شفافة وقليلة الفطنة لكنها دائمًا أداة العناية الإلهية، ومن المؤكد تدرك أن المظالم أصابتك، لكنك تعلم أيضاً أنك اقترفت الخطايا في وعيك.

ـ لا نجد في أعمالك الثورة ضد السلطة.. أنت لم تكن منشقًا يومًا من الأيام..

* أنت مخطئ، وهذا يعني أنني لم أتنازل مطلقًا وأصرخ: «تسقط السلطة السوفييتية»!

ـ لا تشكّل السلطة مشكلة بالنسبة لك.. يبدو أن هذا الأمر لا يهمك..

* أي كلام مقدّس هذا ربما كان ذلك أكبر تحد في وجه السلطة. كانت السلطة موضوعًا لسرد النكات والوقائع بيننا، لكن من هنا كنا نأخذها على محمل الجد.. كان من الواضح بالنسبة لي ولأصدقائي أنها تجسيد للشر، لم نكن نشك في ذلك أدنى شك! وإذا كانت لجيلي أوهام، فكان ذلك قبل عام 1956، وبعد ذلك، أصبح كل شيء واضحًا. كنت آنذاك في السادسة عشرة من عمري.

ـ لنعد إلى «حركة الديسمبريين» كيف تفهم إذن التقاليد الروسية؟

* أصبحت حركة الديسمبريين جزءًا من مناهج المدرسة، عندما يكبر المرء وينضج يبدأ بالتفكير حول البلد والسياسة، وتصبح رموز تلك الحركة مجرد عناصر ديكور، ولو كانت هذه الحركة حقّقت النجاح لكنّا نتعامل معها بجدية، لكنها تعتبر اندحارًا آخر في تاريخ روسيا، لذلك فإنني لا أفكر إلا نادرًا بها وليس بشكل جاد على الإطلاق، فقد صعقت من كلام بوشكين الذي قال: «يحفظنا الله من ثورة روسية عديمة التفكير

وعديمة الشفقة»، وصعقتني كلمة «عديمة التفكير» على الخصوص، فقد أحسست بعبثية ما حصل في روسيا، ثمة صديقة قالت لي ذات مرة: «في مسرح اللامعقول، الأدوار مقلوبة عندنا: الواقعية الكاملة تهيمن على المسرح بينما يعيش الجمهور شيئًا آخر».

ـ لكن الديسمبريين كانوا حدًا مهمًا في الثقافة الروسية..

* ما حدث في القرن التاسع عشر لم تكن له أهمية في القرن العشرين، لأنهما يعبران عن حقائق مغايرة: الشاعرة الروسية أنا أخماتوفا (1889 ـ 1966) قالت شيئًا عجيبًا: «دستويفسكي لا يعرف الحقيقة كاملة. كان يعتقد أنه من خلال قتل المرابي سينخره الندم إلى نهاية حياته، ومن ثم نعترف ونذهب إلى سيبيريا، ونعرف اليوم أنه في الصباح الذي يعدم فيه عشرة أو خمسة عشر شخصًا يذهب في الليل ليوبخ زوجته لأن شعرها غير مصفّف».

فليس من حق القرن التاسع عشر وبفكرته عن العدالة أن يعطينا درسًا في هذا الميدان، ففي القرن العشرين، تصبح فكرة الشعب الذي يحمل الحقيقة، طفولية وساذجة، جرى في روسيا تاريخ يصعب فهمه، ولا يعني ذلك قتل آلاف الناس، لكن عبر أجيال عديدة، فإن حياة ملايين الأفراد أخذت مسارًا مغايرًا للمسار الطبيعي، أنا أخماتوفا قالت ذلك: «تغير مجرى حياتي مثلما يتغير مجرى النهر، فالماء يسيل في مجرى غريب» فقد مات الناس دون أن يعيشوا حياتهم الخاصة، وهذا ما يترك آثاره، غرائز جديدة ظهرت، اليوم تبدو روسيا مثل حديقة حيوانات أنثروبولوجية جديدة، فالحديث مع روسي يمكن أن يكون مثيرًا إذا

كنت أنثروبولوجيًا، وليس أن تهتم بالسياسة أو الفلسفة. أجيال كاملة عاشت في غياب القوانين، حيث المبادرة الشخصية دمرت، وغريزة التحرك اغتيلت وسحقت.. أعتقد أن ما حصل للأمة الروسية، أعتذر عن التعميم، هو بالضبط ما حصل للأنتلجنسيا في القرن التاسع عشر، شعورها بالعجز الكامل.

ـ عندما أراك وأصغي إليك يتشكّل لدي انطباع بأنك تقول شيئًا، وتكتب شيئًا آخر..

* ليس أسوأ عدو للإنسانية هو الشيوعية، ولا الاشتراكية، لكن سوقية المشاعر والمخيلة الإنسانية، على سبيل المثال، إن مخيلة ماركس سوقية، وكذلك مخيلة أتباعه الروس، إننا تربينا في روح فردية صرفة، وربما كرد فعل إزاء جماعية وجودنا السوفييتي، فإذا كان ذلك صحيحًا فإن ردود أفعالنا أقوى من الفعل.

بعد وصولنا إلى الولايات المتحدة، البعض منا، ولا أدري لماذا، أقول نحن بدل أنا، فهمنا شيئًا في روسيا كنا «أمريكيين» وأكثر فردانية من الأمريكيين الأصليين أنفسهم، وكانت أمريكا قد ترسخت في وعينا بشكل عميق.

ـ أنت تمثّل اتجاهًا يفضّل القيم الأمريكية الغربية، فيما نسمع عادة أن روسيا أكثر قربًا من آسيا..

* لا أعرف ماذا أمثّله في الثقافة الروسية، وربما أمثّل شيئًا في الغرب، إنها طريقة في فهم الثقافة دون الاهتمام بالتاريخ السياسي، لأن الثقافة من الظواهر الأكثر قدمًا من أي تشكيل اجتماعي، فقد تكون الشعراء

والكتاب أمثال أنا أخماتوفا، بوريس باسترناك 1880 ـ 1960)، مارينا تزافيتزيفا (1894 ـ 1941) قبل 1917، فالثورة لم تغيّر شيئًا بالنسبة إليهم، كانوا استمروا في الكتابة رغم كل شيء.

ـ متى قرأت ماندلستام لأول مرة؟

* كنت في العشرين أو الثانية والعشرين من عمري، إذ كنت أعمل آنذاك في جامعة لينينغراد، في كلية الجيولوجيا، مما أتاح لي الاطلاع على مكتبتها، ولو لم أكن طالبًا لما كنت قرأت هذه الكتب، كان عملي يبدأ في الساعة الثامنة والنصف، والمكتبة تفتح أبوابها في الساعة العاشرة، فكنت أذهب في الحال، وهكذا قرأت تزافيتزيفا، وبشكل غريب، قرأت أخماتوفا في وقت متأخر، وعندما قابلتها كنت أجهل من تكون.

ـ إلى ماذا تنتمي أخماتوفا في نظرك، إلى التقاليد الشعرية الروسية أم إلى التقاليد الشعرية الأوروبية؟

* هذه المقولات استخدمت على الدوام، وتم تداولها من قبل النظام التوتاليتاري، وعندما كنا نعيش في هذا النظام، كنا مجبرين على أن نمارس الفن في الأشكال الوطنية، بمصاحبة المحتوى الاشتراكي، وعندما كان من الخطورة أن نصبح «أوروبيين» كنا نقدر أن نقول: هكذا إنني روسي، وإذا ما أمضى ابنك ثمانية عشر عامًا في السجون (وهذا ما حصل لابن الشاعرة أخماتوفا الذي أرسل إلى معسكرات التعذيب)، بإمكانك أن تسرد أشياء كثيرة حول نفسك، وبالتأكيد فإن أخماتوفا روسية في تعبيرها دون حدود.

لكن مزاجها لم يكن روسيًا، وأن تزافيتزيفا كانت أكثر من ذلك بكثير،

من هو شاعرها المفضّل؟ هوراس! هذا ما يفسر كل شيء، وما يميزها عنه أنها كانت تعرف العفو والمسامحة، وربما أن الشاعر هوراس لم يكن بحاجة إلى ذلك بل هي كانت بحاجة إليه.

ـ لقد عرفت أخماتوفا ونادجا ماندلستام (زوجة أوسيب ماتت عام 1980) وكل هؤلاء النساء الرائعات كن بجوارك..

* لأن الرجال لا قيمة لهم.

ـ هل تعرفت على بوريس باسترناك؟

* كلا.

ـ ما هي مشاعرك في عام 1958 بعد شن الصحافة السوفييتية حملتها الافترائية ضد باسترناك عندما رفض جائزة نوبل؟

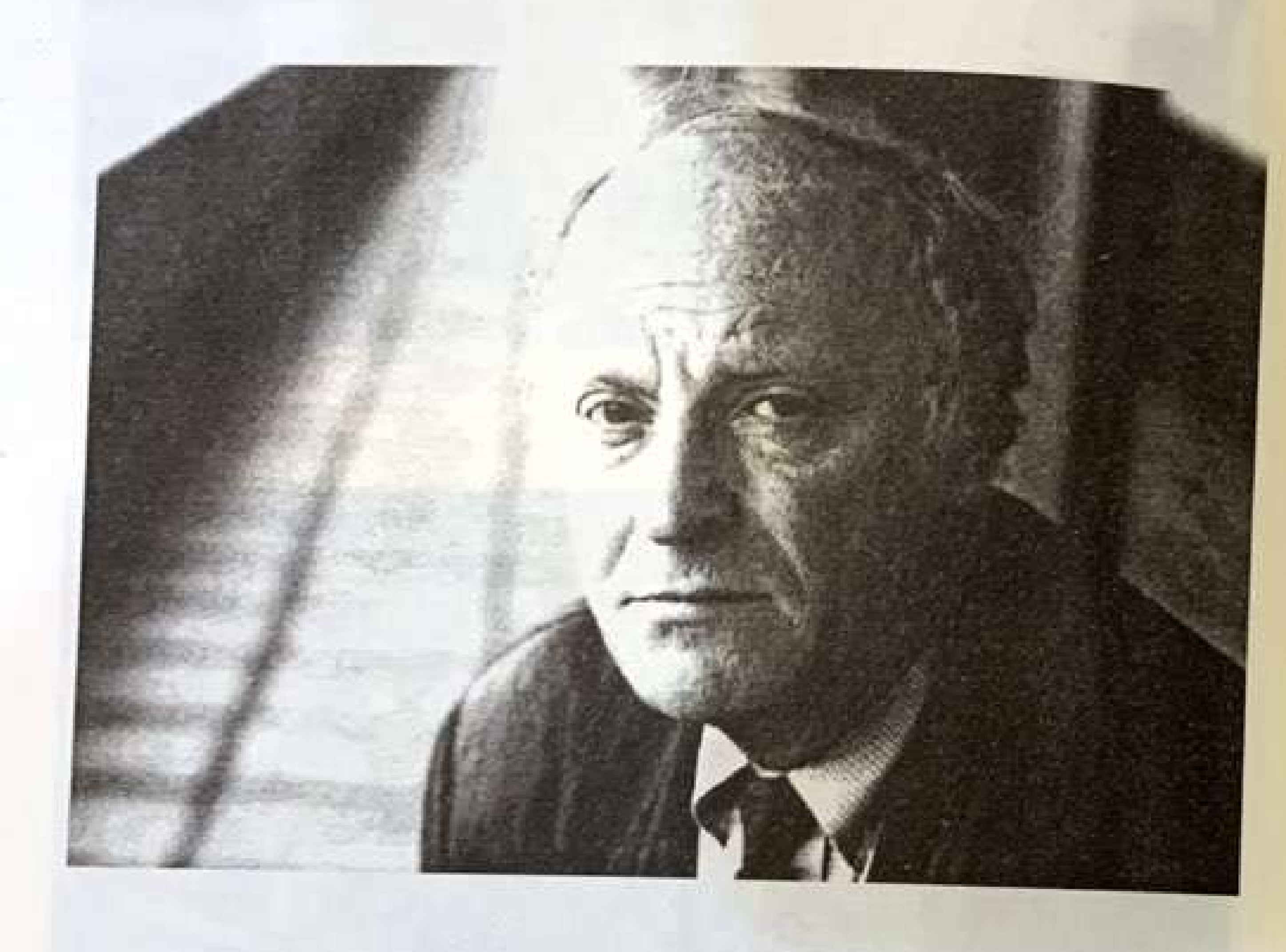
* كانت علاقاتي مع باسترناك غامضة، أخماتوفا كانت تردد أنه كان(ماذا؟) هذه الجائزة، أعتقد أنه ينبغي ألا ترغب بأي شيء في الحياة، كان غريبًا لدرجة لم أكن أتخيّل وضعه بسهولة.. حياته كانت عبارة عن فوضى، خاصة حياته الشخصية، وأعتقد أنه أصيب بشيء حزين، كان بإمكانه أن يصبح شخصًا رائعًا، وعند سماعي لقراءاته بعض قصائده خُيّل لي أنه لم يكن يفهم ما يقرأ، والأسوأ من ذلك أنه لم يكن يفهم ما يكتب. كان ينشد أشعاره «الفانتازية» بأداء أو بنبرة سوفييتية، ربما كان ذلك مجرد صدفة استثنائية: باسترناك كان أداة لا يعرف ما كان يفعله تمامًا مثل غورباتشوف الذي لا يفهم التاريخ، رجل من طراز باسترناك كان بإمكانه أن يقوم بأعمال عظيمة دون وعي، لقد استمعت إلى غورباتشوف في واشنطن قبل عامين، ثمة عشرون شخصًا كانوا

يوجّهون إليه أسئلة في صالة كبيرة، بينما كان هو يلتزم الصمت كان لا يقدر أو لا يرغب في الإجابة، بالنسبة لي، فإن غورباتشوف يمثل أبهة ستافروبول من جهة، ومن جهة أخرى كان السكرتير العام للحزب، ومن ثم كان يعرف بيوغرافيا لينين، فقد مضى زمن غورباتشوف، لكن ما يمثّله ما يزال غير مرغوب فيه على ما أعتقد.

ـ لنعد إلى باسترناك، مازلت مصعوقًا بروح باسترناك الاستسلامية، إنني أحد قرائه ولا أفهم كيف يمكن تبريره، أنت لست مستسلمًا مثل باسترناك الذي تصرف بطريقة سوفييتية..

* ببساطة لم تكن لديه سجايا، بل كان مسحوقًا، رغم حرارته العاطفية، كان بإمكانه أن يقول إن كل ذلك لم يكن مهمًا، وما يهم هو العلاقات الإنسانية. كثير من الروس سقطوا في هذا الفخ باستثناء النساء، وما حدث في عام 1979 سبب الدوار لأكثر من واحد. وفي منعطف القرن العشرين، عرفنا انهيار مرحلة كاملة، الحرب مع اليابان والكوارث الفظيعة إذ فهم أناس أن شيئًا جديدًا سيبدأ، عالمًا آخر. كتب الشاعر الكسندر بلوك (1880 ـ 1921) قصائده مع غياب الشمس الدموي إذ كانت فكرة تأسيس عالم جديد غامضة للغاية، ولهذا عندما تنحى القيصر في عام 1917، انفجر كل شيء، وبدأت الثورة.. كثير من الناس اقتنعوا بأن كل شيء حدث حسب تكهناتهم، فانطلقوا من النظام الجديد لإيجاد عالم آخر، وإيجاد الأناجيل، وبالنسبة لكثيرين كان أسلوبًا لتهدئة وعيهم، باستثناء النساء، فالرجل يتمكن من تبرير ذاته بمساعدة التعميمات، بينما المرأة ترى التعاسة، الحياة الممزقة والمعاناة، ولهذا السبب عندما تريد التعبير عن الأشياء ببساطة تجهش بالبكاء، الدوار أصاب جميع الناس بسبب ولادة العالم الجديد حتى ماندلستام نفسه .

ملحق صور برودسكي



Brodsky [illegible], understood perfectly their psychology, drew them very well.

Brodsky hoped we could have
the marriage date set before the authorities might prohibit this.

Each hate campaign has informational fallout.
3 month after the article was published Brodsky is arrested.



الفهرس

محاكمة برودسكي

اول محاكمة لشاعر

هذا الكتاب:

محاكمة سريالية تراجيكوميدية ...

" إن من يركض وراء نشر كتبه لا يمكن أن يكتب وينتج".

" نحن جئنا إلى هنا لا لكي نعيش بل لكي نكمّل ما تبقى لنا من أيام العمر ".

" عندما نفقد قدرتنا على كتابة الشعر، يعني ذلك أن الحياة أوشكت على الانتهاء ".

برودسكي

لم تكن محاكمة الشاعر جوزيف برودسكي من نسج الخيال بل هي حقيقة واقعة موجودة في الوثائق والأرشيف إذ تجسّد أول محاكمة لشاعر، العلاقة المأساوية بين السلطة والإبداع، وهذه القضية ما زالت تتفاعل في مجتمعنا العربي ولم تجد بعد الحلول اللازمة رغم سقوط الإمبراطوريات والدكتاتوريات والأنظمة الشمولية هنا وهناك. لقد تعرضَ الشاعر إلى المنع من الكتابة لأنه لم يكن منتميا إلى اتحاد الكتاب والأدباء السوفيات آنذاك، فالابداع الأدبي كان عليه أن يمر بسلسلة من القنوات الحزبية قبل أن يرى النور وإلا يعتبر منشورا سريا يُحاسب عليه صاحبه. وهذا ما حصل مع الشاعر برودسكي.

يعود الفضل في تدوين وحفظ جلسات محاكمة الشاعر برودسكي في عام 1964 الصحافية الشجاعة فريدا فيغدوروفا التي لولاها لذهبت وقائعها أدراج الرياح. لذلك أصبحت وثيقة هامة وفريدة من نوعها، في تاريخ الأدب، علق عليها ايفيم ايتكند، عضو اتحاد الكتاب والأدباء، وصديق برودسكي وأحد الذين شهدوا محاكمته. وقد وصفها الكثيرون بأنها رائعة سريالية تراجيكوميدية، أنبثقت من لجتها البيروسترويكا التي غيّرت وجه روسيا نحو الديمقراطية.

وقد صُدمت سلطات بلده أن حاز مواطنها الشاعر على جائزة نوبل للآداب من مقر إقامته في الولايات المتحدة، الذي أعتبر أكثر من شاعر، فهو مفكرٌ، خرج على تقاليد الأدب المألوف ليذهب بتجربته إلى أقصى مداها في عالم كتابة الشعر.

المؤلف







دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07711002790 - 07700492576

e.mail: bal_atame@yahoo.com